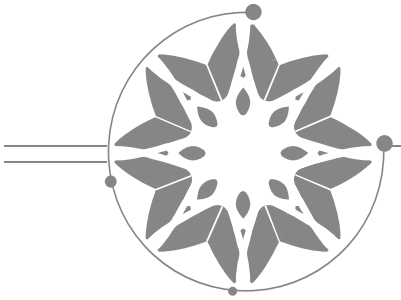

الفصل الثالث: الداعية المربي.. القدوة والتأثير

أهداف الفصل:

يستهدف هذا الفصل إجمالاً تعريف الداعية بمهماته، وكيفية تعامله مع غيره في إطار متوازن بين المسؤولية الفردية و المسؤولية المجتمعية.

أما تفصيلاً، فمن المتوقع بعد قراءة هذا الفصل أن يتعرف الداعي إلىٰ الله علىٰ:

١) مفهوم القدوة.

٢) صور القدوة في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

٣) صفات الداعية القدوة.

٤) الوسائل المعينة للداعية علىٰ تمثل صفات القدوة.

٥) مهمة الداعية في الأسرة.

٦) مهمة الداعية في مجتمعه.

٧) المهمات التربوية للداعية ومسؤولياته الدعوية.

٨) علاقة الداعية بالمسلمين وواجبه معهم: (العوام، المبتدعة، العصاة، المنحرفون فكريا، الشباب، الأطفال، النساء).

٩) علاقة الداعية بغير المسلمين وواجبه تجاههم: (الملحدون، أهل الكتاب، المشركون، الباحثون عن الحق، المعاندون).

١٠) علاقة الداعية مع الدعاة وواجباته نحوهم (تكامل المهمات، الآداب الشرعية عند الخلاف مع المدعوين).

١١) تقويم الذات في ضوء الأنشطة الآتية.

أنشطة إثرائية للعصف الذهني:

١) الداعية القدوة هو ذلك المربي الذي يمثل أنموذجًا حسنًا للآخرين في أقواله وأفعاله وخصاله. وبتوافر القدوة في الدعاة، تتكون لدىٰ المدعوين الاتجاهات، ويتشربون القيم، وتتعدل سلوكياتهم. وحتىٰ يتحقق ذلك، فلا بد من تحلِّي الداعية بصفات القدوة الحسنة؛ مثل: الإخلاص في القول والعمل، مراقبة الله تعالىٰ، موافقة الفعل للقول، التزام الأخلاق الفاضلة، التزود من العلم والمعرفة،...إلخ. فكيف للداعية القدوة أن يُحوِّل هذه الصفات والقيم من مجرد دلالات رمزية إلىٰ مؤشرات سلوكية ومواقف واقعية مباشرة ذات وقْع وتأثير حسن علىٰ المدعوين؟

٢) **يقتضي عمل الداعية إلىٰ الله التعامل مع مختلف المدعوين الذين:**

- تتدرج مواقفهم أحيانًا من الفظاظة وغلظة القلب إلىٰ اللين والرفق.
- وتتباين اتجاهاتهم نحوك ما بين مؤيد ومعارض ومحايد.
- وقبل ذلك كله يُصنَّفون حسب أديانهم ومعتقداتهم إلىٰ: مسلمين، ومنافقين وكفار، مع تنوع كل صنف منهم.
- كذلك تختلف فئات المدعوين حسب مراحلهم العمرية إلىٰ: أطفال، وشباب، وشيوخ (رجالاً ونساءً).
- ويختلفون حسب تعليمهم وثقافاتهم ما بين: متعلم مثقف، وأمي جاهل،... إلخ!

فإذا طُلب منك بصفتك داعية دعوة كل هذه الأصناف السابقة إلىٰ الله:

- فما الأهداف التي ستحددها لدعوتك؟

- وما محاور الموضوع الذي ستختاره مع كل صنف؟
- وما الأسلوب التربوي المناسب للتعامل مع كل فئة؟
- وما نوع الأدلة التي ستعتمد عليها في دعوتك لهؤلاء؟
- وما النتائج أو المكاسب التي ترجوها من دعوتهم أجمعين؟

٣) في ضوء قول الرسول ﷺ: «**ألا فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِه**»[١]، حدِّد مسؤوليات الداعية وواجباته تجاه كل ممن يلي: أسرته، جيرانه، أقرانه في بيئة العمل، زملائه من الدعاة، عوام الناس، أصحاب البدع، النساء، الأطفال، النصارىٰ واليهود، المشركين، الملحدين، المنحرفين فكريًا، المعاندين.

٤) كانت آخر وصية للرسول ﷺ تتعلق بالنساء والصلاة، في ضوء هذه الوصية اذكر من نماذج الهدي النبوي ما يدل علىٰ:

- واجب المرأة الداعية إلىٰ الله.
- واجب الدعاة إلىٰ الله نحو المرأة.
- أهمية تكامل المهمات بين الدعاة والداعيات.

٥) إذا كان من الطبعي حدوث خلاف أو اختلاف بين الدعاة والمدعوين، فإنه ليس من الطبعي التخلي عن الآداب الشرعية عند التعامل مع المختلفين عنك في الدين، أو الجنس، أو الطبقة أو المكانة الاجتماعية، أو الفكر أو...إلخ.

في ضوء هذا، اذكر من الأدلة الشرعية ومن مواقف السلف نماذج علىٰ الآداب الشرعية التي ينبغي اتخاذها أساسًا عند الخلاف.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

تمهيد:

انتشر الإسلام في ربوع الدنيا بالقدوة الحسنة للمسلمين التي كانت تجلب أنظار غير المسلمين، وتأسر وجدانهم، فتحملهم علىٰ اعتناق الإسلام، والتخلق بقيمه، وتمثلها حتىٰ عند التعامل مع المخالف. لذا، كانت القدوة الحسنة للداعي إلىٰ الله وسيرته الطيبة بين الناس هي في الحقيقة تجسيد للدعوة العملية للإسلام، والدليل الواقعي علىٰ أحقية الإسلام وأنه الدين الصحيح الذي يقبله الله ويرضاه.

فمن الوسائل المهمة جداً في الدعوة إلىٰ الله وتعريف الناس بالدين الإسلامي، السيرة الطيبة للداعي وأفعاله الحميدة وصفاته العالية وأخلاقه الزاكية مما يجعله قدوة طيبة وأسوة حسنة لغيره، فيكون بهذا كتاباً مفتوحاً يقرأ فيه الناس معاني الإسلام، فيقبلون عليها وينجذبون إليها؛ لأن التأثر بالأفعال والسلوك أبلغ وأكثر من التأثر بالكلام فقط.

وإذا كان من المستحيل أن يعيش الداعية بمفرده، وأن الدعوة فرض عليه، وأن ما لا يتأتىٰ الواجب إلا به فهو واجب، كان عمل الداعية يقتضي مخالطة الناس، وإرشادهم إلىٰ الطريق المستقيم بالهدىٰ والعلم والدين القيم. وإذا كانت مخالطة المدعوين شيئاً واجباً وثابتاً منذ بدء الإسلام والأمر بتبليغه، فإن وجوب مخالطة المدعوين أصبح أشد في زماننا هذا أكثر من أي زمان مضىٰ؛ وذلك لما غشي أكثر البشر من إيثار للدنيا المادية حجب عنهم أنوار الحق وقطع صلاتهم بالله، الأمر الذي جعل لزاماً علىٰ كل مسلم أن يسهم في الدعوة إلىٰ الله بقدر طاقته وقدرته علىٰ الاقتداء بأخلاق النبي صلىٰ الله عليه وسلم واقتفاء هديه عند مخالطة الناس ودعوتهم إلىٰ الله.

وبناءً علىٰ أهمية القدوة في الدعوة إلىٰ الله، تم تقسيم هذا الفصل إلىٰ ثلاثة مباحث علىٰ النحو الآتي:

- **المبحث الأول: الداعية القدوة.**
- **المبحث الثاني: المهمات التربوية للداعية.**
- **المبحث الثالث: علاقة الداعية بأصناف الناس.**

المبحث الأول
الداعية القدوة

تعني القِدوة أو القُدوة: الأسوة بكل ما أو من يُقتدَىٰ به. وهي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره إن حسنًا وإن قبحًا، وإن سارًّا وإن ضارًّا؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فوصفها بالحسنة. وتعرف القدوة أيضًا بأنها: حالة تَحمِل المقتدِي علىٰ التأثر بأخلاق القدوة (المقتدىٰ به) وأعماله.

والقدوة نوعان: حسنة وسيئة؛ فالحسنة الاقتداء بأهل الخير والفضل والصلاح في كل ما يتعلق بمعالي الأمور وفضائلها من القوة والحق والعدل.

وقدوة المسلمين الأولىٰ، صاحب الخلق الأكمل والمنهج الأعظم: رسولنا محمد ﷺ، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ومن دقيق المعنىٰ في هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه جعل الأسوة في رسول الله ﷺ، ولم يحصره في وصف خاص من أوصافه أو خلق من أخلاقه أو عمل من أعماله الكريمة، وما ذلك إلا من أجل أن يشمل الاقتداء أقواله عليه الصلاة والسلام وأفعاله وسيرته كلها فيقتدي به، صلىٰ الله عليه وسلم، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ويقتدي بأفعاله وسلوكه من الصبر والشجاعة والثبات والأدب وسائر أخلاقه، كما

يشمل الاقتداء بأنواع درجات الاقتداء من الواجب والمستحب وغير ذلك مما هو محل الاقتداء.

والنوع الثاني: الأسوة السيئة: ويعني السير في المسالك المذمومة واتباع أهل السوء والاقتداء من غير حجة أو برهان ومن ذلك قول المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، ولهذا رد عليهم القرآن بقوله: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾[الزخرف: ٢٤]. وفي آية أخرى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

وبعد التعرف على مفهوم القدوة، وأنواعها، يأتي هذا المبحث ليوضح للداعية كيف يصبح قدوةً صالحة فيما يدعو إليه، فلا يناقض قولُهُ فِعلَهُ، ولا فعلُه قولَه. ولتجلية أهمية هذا الأسلوب النبوي التربوي للداعية وضرورته، يعرض المبحث الحالي للعناصر الآتية:

أولاً: القدوة في القرآن والسنة:

١) القدوة في القرآن الكريم:

تعد القدوة من أهم الأساليب التربوية الناجعة، والتي تؤثر في المدعوين أكثر مما تؤثره الكلمات والحكايات؛ ولهذا اهتم القرآن الكريم بهذا الأسلوب أيَّما اهتمام، وتنوع عرضه بصور متنوعة وطرق مختلفة، وحث عليه؛ كل ذلك لأهميته في توصيل الرسالة الدعوية، وتحقيق الهدف المنشود من الدعوة إلى الله، ولعلنا نعرض بعض تلك الصور، فمن ذلك:

أ- التأسي بالرسل والأنبياء على العموم:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾[الأنعام: ٩٠]. فبعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى عددا من الأنبياء وقص قصصهم قال لنبيه محمد ﷺ: ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ والمعنى هو: (فبالعمل الذي عملوا والمنهاج الذي سلكوا وبالهدى الذي هديناهم والتوفيق الذي وفقناهم «**اقتده**» يا محمد فاعمل وخذ به واسلكه فإنه عمل لله فيه رضًا، ومنهاج من سلكه اهتدى)[(١)].

ب- الاقتداء بالنبي ﷺ على الخصوص:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب: ٢١]. قال القرطبي في معنى الأسوة: (الأسوة القدوة، والأسوة ما يتأسى به أي يتعزى به، فيقتدى به في جميع أفعاله ويتعزى به في جميع أحواله)[(٢)].

ج- الحث على الاقتداء بمواقف الأنبياء وأتباعهم في الثبات على الحق والبراءة من الكفر وأهله:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ.. ﴾، ثم أكد هذا الاقتداء بقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[الممتحنة: ٤-٦]. قال السعدي: (وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل على من كان يرجو الله واليوم الآخر، فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب يُسهِّل على العبد كل عسير، ويقلل لديه كل كثير، ويوجب له الإكثار من

(١) تفسير الطبري (١١/ ٥١٩).

(٢) تفسير القرطبي (١٤/ ١٥٥).

الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين؛ فإنه مفتقر ومضطر إلىٰ ذلك غاية الاضطرار)[1].

د- القدوات تضاعف حسناتهم وسيئاتهم:

ولهذا حدَّث القرآن عن أزواج رسول الله ﷺ وهن في موطن القدوة لسائر المؤمنات؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾[الأحزاب: ٣٠-٣١]. وقال ﷺ: «**من دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا**»[2].

هـ- اتباع المبادئ مُقدَّم علىٰ الاقتداء بالأشخاص:

جعل القرآن الكريم اتباع المبادئ مقدمًا علىٰ الاقتداء بالأشخاص، وهذا هو الفرق بين التقليد والاتباع؛ فالمقلد يحاكي ما يراه دون فهم لحكمة أو تعرف إلىٰ دليل، أما المتبع فهو وإن قلد فتقليده مبني علىٰ علم بدليل ما يعمله، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي...﴾[يوسف: ١٠٨].

قال السعدي: (﴿قُلۡ﴾ للناس ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلىٰ الله وإلىٰ دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي: أحث الخلق والعباد إلىٰ الوصول إلىٰ ربهم، وأرغبهم في ذلك وأرهبهم مما يبعدهم عنه، ومع هذا

(١) تفسير السعدي (ص٨٥٦)

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

فأنا ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ من ديني، أي: علىٰ علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية. ﴿وَ﴾ كذلك ﴿مَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ يدعو إلىٰ الله كما أدعو علىٰ بصيرة من أمره ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في جميع أموري، بل أعبد الله مخلصًا له الدين)[1]. ويقول ﷺ: «**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**»[2].والحديث يشترط في اتباعنا لمن هم بعد رسول الله ﷺ أن يكون الأمر علىٰ رشاد، وهذا يقتضي عرض أفعالهم علىٰ المبادئ، فما توافق معها قبلناه مع تسليمنا بمكانة الشخص الذي نعرض لسيرته ومبلغ قدره.

و -علَّم سبحانه عباده أن يدعوه ليكونوا قدوة في التقوىٰ:

قال سبحانه عن عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]. قال مجاهد: (أئمة نقتدي بمن قبلنا، ونكون أئمة لمن بعدنا)[3].

ز -النهي عن التقليد الأعمىٰ:

قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣-٢٤]. يقول السعدي: (وهذا الاحتجاج من هؤلاء

---

(١) تفسير السعدي (ص٤٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٤٤)، أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧).

(٣) تفسير الطبري (١٩/ ٣٢٠).

المشركين الضالين، بتقليدهم لآبائهم الضالين، ليس المقصود به اتباع الحق والهدىٰ، وإنما هو تعصب محض، يراد به نصرة ما معهم من الباطل)[1].

ح -الوعيد الشديد لمن يخالف قوله فعله:

قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢-٣]. يقول السعدي: (لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون به ومتصفون به، فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للآمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، وللناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه)[2].

ط -تحذير من يحيد عن القدوة الصالحة ويتبع الظالمين:

قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ۝٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٨]. يقول ابن كثير: (إن الله يخبر عن ندم الظالم الذي فارق طريق رسول الله، والذي جاء به من الحق المبين، وسلك طريق غير سبيل المؤمنين، فإنه يوم القيامة يندم حيث لا ينفعه الندم، ويعض علىٰ يديه حسرة وأسفًا)[3].

---

(١) تفسير السعدي (ص ٧٦٤).

(٢) المرجع السابق (ص٨٥٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ١٠٨).

٢) القدوة في السنة المطهرة:

كذلك اهتمت السنة المطهرة بأسلوب القدوة، وتنوُّع عرضها، وأولتها عناية واهتمامًا؛ وذلك لأهمية هذا الأسلوب في توصيل الرسالة الدعوية بأقل جهد، وأقصر طريق، وأخف مؤونة، ومن تلك الصور:

أ- الأمر بالاقتداء بالنبي ﷺ في هديه وعبادته:

يقول سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقد رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ قام عليه فكبَّر وكبَّر الناسُ وراءَه. وهو علىٰ المِنبَرِ. ثم رفَع فنزَل القَهقَرىٰ حتىٰ سجَد في أصلِ المِنبَرِ. ثم عاد حتىٰ فرَغ من آخِرِ صلاتِه. ثم أقبَل علىٰ الناسِ فقال: «**يا أيُّها الناسُ! إني صنَعتُ هذا لتأتَمُّوا بي، ولتَعلَموا صلاتي**»(١).

قال الإمام النووي: (فبين لهم ﷺ أن صعوده المنبر، وصلاته عليه، إنما كان للتعليم، ليرىٰ جميعهم أفعاله ﷺ، بخلاف ما إذا كان علىٰ الأرض فإنه لا يراه إلاّ بعضهم ممن قرب منه)(٢).

وقال ابن حجر: (الحكمة في صلاته في أعلىٰ المنبر ليراه من قد يخفىٰ عليه رؤيته إذا صلىٰ علىٰ الأرض)(٣). وقال ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»(٤). وقال ﷺ: «**لتأخذوا عني مناسككم**»(٥).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٤٤).
(٢) شرح النووي علىٰ مسلم (٥/ ٣٥).
(٣) فتح الباري (٢/ ٤٠٠).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٠٨).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٩٧).

ب- تشجيع المبادرات للخيرات ليكون المرء قدوة لغيره:

قال جرير بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جاء ناسٌ من الأعرابِ إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ عليهم الصوفُ. فرأىٰ سوءَ حالِهم؛ قد أصابتهم حاجةٌ. فحثَّ الناسَ علىٰ الصدقةِ، فأبطأوا عنه حتىٰ رُؤِيَ ذلك في وجهِه. قال: ثم إنَّ رجلاً من الأنصارِ جاء بصُرَّةٍ من وَرِقٍ، ثم جاء آخرُ، ثم تتابعوا حتىٰ عُرِفَ السُّرورُ في وجهه، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**من سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حسنةً، فعُمِل بها بعده، كُتِبَ له مثلُ أجرِ مَن عمل بها، ولا ينقصُ من أجورِهم شيءٌ. ومن سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سيئةً، فعُمِل بها بعدَه، كُتب عليه مثلُ وِزرِ من عمل بها، ولا ينقصُ من أوزارِهم شيءٌ**»[(١)]. وقال النبي ﷺ: «**من دعا إلىٰ هدىً كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»[(٢)].

ج -عرض القدوات الصالحة للأمة للاقتداء بهم:

يقول خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شكونا إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لهُ في ظلِّ الكعبةِ، قلنا لهُ: ألا تستنصرُ لنا؟ ألا تدعو اللهَ لنا؟ قال: «**كان الرجلُ فيمن قبلكم يُحْفَرُ لهُ في الأرضِ، فيُجْعَلُ فيهِ، فيُجاءُ بالمنشارِ فيُوضَعُ علىٰ رأسِهِ فيُشَقُّ باثنتيْنِ، وما يصدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، ويُمْشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لحمِهِ من عظمٍ أو عصبٍ، وما يصدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، واللهِ ليُتِمَّنَّ هذا الأمرُ، حتىٰ يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلىٰ حضرموت، لا يخافُ إلا اللهَ، أو الذئبَ علىٰ غنمِهِ، ولكنكم تستعجلونَ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠١٧).

(٢) أخرجه في صحيحه مسلم (٢٦٧٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٦١٢).

وقال ﷺ: «**اقتدوا باللذَيْنِ من بعدِي من أصحابِي: أبي بكرٍ وعُمَرَ، واهتدوا بهدي عَمّارَ، وتَمسّكوا بعهْد ابن مسعودٍ**»(١).

ثانيًا: مشروعية طلب القدوة:

لقد فطر الله الناس وجبلهم علىٰ طلب القدوة والبحث عن الأسوة، لتكون لهم نبراسًا يضيء سبيل الحق، ومثالاً حيًّا يبين لهم كيف يطبقون شريعة الله، لذلك لم يكن لرسالات الله من وسيلة لتحقيقها علىٰ الأرض إلا إرسال الرسل؛ يبينون للناس ما أنزل الله من شريعة؛ قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٣ - ٤٤].

ولهذا فحاجة الناس إلىٰ القدوة وطلبهم لها نابعة من غريزة تكمن في نفوس البشر أجمع؛ هي: التقليد، وهي رغبة ملحة تدفع الطفل، والضعيف، والمرؤوس، والمتربي، والمدعو إلىٰ محاكاة سلوك الرجل، والقوي، والرئيس، والمربي، والداعية، والعالم؛ كما تدفع غريزة الانقياد في القطيع جميع أفراده إلىٰ اتباع قائده، واقتفاء أثره.

ولعل مما يقوي مشروعية طلب القدوة تلك الدوافع والأسس الفطرية والنفسية التي تدفع الناس للاقتداء بغيرهم، ولعلنا نختصرها فيما يلي:

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٠٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٣٣).

١) **الإعجاب**: إن الإنسان عندما يعجب بسلوك معين، أو بشخصية، يجد انجذابًا نفسيًا داخليًا للاقتداء بها في عموم السلوك والأخلاق، أو في جزئيات معينة، وتجد أن الدافع لذلك هو حب التجانس مع هذه الشخصية نتيجة الإعجاب.

٢) **التنافس**: يعتبر التنافس من العوامل التي تثير عملية الاقتداء والتأسِّي؛ لأن التنافس السوي يكون مبنيًّا علىٰ الرغبة في التماثل والتسابق دون أن يوافق ذلك رغبة في زوال ما عند الآخرين.

٣) **الشعور بالعجز**: إن الشعور بالعجز أو النقص في بعض جوانب الشخصية يدفع المرء إلىٰ الاحتذاء بمن يرىٰ أنهم متفوقون عليه في ذلك الجانب الذي أخفق في تحقيقه، ويرىٰ أن في تقليدهم مخرجًا وعلاجًا قد ينقله ويخرجه مما يعاني منه.

وعليه؛ فمنهج الإسلام يحتاج إلىٰ بشر يحمله ويترجمه بسلوكه وتصرفاته، فيحوِّله إلىٰ واقع عملي محسوس وملموس، ولذلك بعث الله نبيه ﷺ بعد أن وضع في شخصيته الصورة الكاملة للمنهج؛ ليترجم هذا المنهج ويكون خير قدوة للبشرية جمعاء. وهذا يوافق فطر الناس وحاجتهم وطلبهم للقدوة التي يحتذىٰ بها.

أما بالنسبة للداعية إلىٰ الله فلا بأس له أن يسعىٰ لقيادة الناس وإرشادهم وتوجيههم؛ فلا بد من التوازن بين كراهية الصدارة والشهرة، ووجوب قيادة الناس؛ فلا ينبغي أن يفهم من كراهية الصدارة والشهرة أنه يراد به قتل الطموح، ولا تفضيل دنو الهمة والقعود والخمول والعجز والكسل والتهرب من المسؤولية، وترك العمل، والتخاذل عن الواجبات وفروض الكفايات؛ خاصة إذا تعينت علىٰ الأكفاء.

وقد جعل ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الفرق بين الأمرين كالفرق بين تعظيم أمر الله وتعظيم النفس؛ فالناصح لله المعظم لله يحب نصرة دينه، فلا يضره تمنِّيه أن يكون ذلك بسببه،

وأن يكون قدوة في الخير. أما طالب الرياسة فهو ساعٍ في حظوظ دنياه، ولذا يترتب علىٰ قصده مفاسد لا حصر لها.

والمقصود أن الداعية المخلص يكره التصدر والإمارة والشهرة بطبعه؛ لإخلاصه وبعده عن الرياء، ولكنه في نفس الوقت هو صاحب المبادرة الخيرة، وهو فارس الميدان إذا تعين عليه التصدر؛ وقد حكىٰ الله من دعاء المؤمنين قولهم: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان: ٧٤]، أي: أئمة هدىٰ يقتدىٰ بأفعالهم، وهذا لشدة محبتهم لله، وتعظيمهم لأمره، ونصحهم له، ليكون الدين كله لله، وليكون العباد ممتثلين لأمره.

وقال سبحانه وتعالىٰ قاصًّا كلام يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾[يوسف: ٥٥]، وليس ذلك حرصًا منه علىٰ الولاية، وإنما هو رغبة في النفع العام، وقد عرف من نفسه الكفاية والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه، فقصده إصلاح أموال الناس، وهو جزء من رسالة الداعية إلىٰ الله، الذي يكون همه الأول فعل الخير طلبًا لمرضاة الله تعالىٰ، وليس قصده إرواء غليله، وإرضاء شهوته في الزعامة؛ فالضابط فيها هو النية والموازنة بين المصالح والمفاسد العامة. ففي الجملة: هاتان الآيتان توضحان أن الداعية هو الرائد والدليل، بل قد ينبغي له طلب هذه الوظيفة الشريفة، بل قد تتعين عليه للمصلحة. والأدلة والأقوال المحذرة لا تنطبق علىٰ داعية تصدّر لإرجاع قومه إلىٰ الحق، حتىٰ لو اشتهر وعرف فلا بأس.

ويجب التنبيه إلىٰ أن هذا الأمر مزلق؛ لالتباس النية فيه كثيرًا، وصعوبة تمحيص القصد، وذلك علمه إلىٰ الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[آل عمران: ٣٠].

ثالثًا: أهمية القدوات:

القدوة الحسنة من الوسائل المهمة جدًا في تبليغ الدعوة إلىٰ الله وجذب الناس إلىٰ الإسلام وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، كما أن القدوة الطيبة للداعي وأفعاله الحميدة وصفاته العالية وأخلاقه الزاكية تجعله أسوة حسنة لغيره، يكون بها أنموذجًا يقرأ فيه الناس معاني الإسلام فيقبلون عليه وينجذبون إليه؛ لأن التأثر بالأفعال والسلوك أبلغ وأكثر من التأثر بالكلام وحده. إن الإسلام انتشر في كثير من بلاد الدنيا بالقدوة الطيبة للمسلمين التي كانت تبهر أنظار غير المسلمين وتحملهم علىٰ اعتناق الإسلام؛ فالقدوة الحسنة التي يحققها الداعي بسيرته الطيبة هي في الحقيقة دعوة عملية للإسلام يستدل بها سليم الفطرة راجح العقل من غير المسلمين علىٰ أن الإسلام حق من عند الله.

ومن السوابق القديمة في أهمية السيرة الحسنة للداعي وأثرها في تصديقه والإيمان بما يدعو إليه: ما جاء عن عبد الله بن سلام، قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبنت وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: «**يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام تدخلون الجنة بسلام**»(١).

فعبد الله بن سلام استدلَّ بسَمْت رسول الله ﷺ ووجهه المنير الكريم الذي يكون عليه أهل الصدق والأخلاق الكريمة، استدلَ بذلك علىٰ صدقه فيما يدعو إليه ﷺ. كما أن الداعية إلىٰ الله تعالىٰ بحاجة شديدة جدًّا إلىٰ تطبيق ما يقول ويدعو إليه حتىٰ

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٨٥) وقال: حديث صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٦٥).

يقتدي به الناس؛ ولهذا بيّن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ هذه المسألة، وحذَّر من عدم التزامها؛ حيث قال: (علماء السوء جلسوا علىٰ باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلىٰ النار بأفعالهم؛ فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم؛ فلو كان ما دعوا إليه حقًّا كانوا أول المستجيبين له. فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع الطرق)[1].

ويمكن إجمال أهمية القدوات في الأمور الآتية:

١ - إن المثال الحي والقدوة الصالحة يثيران في نفس البصير العاقل قدرًا كبيرًا من الاستحسان والإعجاب والتقدير والمحبة، فيميل إلىٰ الخير، ويتطلّع إلىٰ مراتب الكمال ويحاول أن يعمل مثله حتىٰ يحتل درجة الكمال والاستقامة.

٢ - إن القدوة الحسنة المتحلِّية بالفضائل تُعطي الآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل والأعمال الصالحة من الأمور الممكنة التي هي في متناول القدرات الإنسانية، وشاهد الحال أقوىٰ من شاهد المقال.

٣ - إن الأتباع والمدعوّين الذين يربّيهم ويدعوهم الداعية ينظرون إليه نظرة دقيقة دون أن يعلم هو أنه تحت رقابة مجهرية؛ فرُبّ عمل يقوم به من المخالفات لا يلقي له بالاً يكون في نظرهم كبيرًا؛ لأنهم يعدُّونه قدوة لهم. وقد يراه الجاهل علىٰ عملٍ غير مشروع أو محرم فيظن أنه علىٰ حق، ولا شك أن الأمر خطير، والنجاة من ذلك أن يعمل الدعاة بالعلم، وليتقوا الله تعالىٰ.

ولكي ندرك خطورة ذلك الأمر نتأمل هذه القصة: يروىٰ أن أبا جعفر الأنباري صاحب الإمام أحمد عندما أُخبر بحمل الإمام أحمد للمأمون في الأيام الأولىٰ للفتنة

---

(١) الفوائد ص٦١.

عبر الفرات إليه فإذا هو جالس في الخان، فسلم عليه، وقال: يا هذا أنت اليوم رأسٌ والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبتَ إلىٰ خلق القرآن ليجيبنَّ بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنعنَّ خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل -يعني المأمون- إن لم يقتلك فأنت تموت، ولا بد من الموت، فاتق الله ولا تجبهم إلىٰ شيء. فجعل أحمد يبكي ويقول: ما قلت؟ فأعاد عليه فجعل يقول: ما شاء الله، ما شاء الله[1]. وتمر الأيام عصيبة علىٰ الإمام أحمد، ويمتحن فيها أشدّ الامتحان ولم ينس نصيحة الأنباري، فها هو المروذي أحد أصحابه يدخل عليه أيام المحنة ويقول له: (يا أستاذ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[النساء: ٢٩]، فقال أحمد: يا مروذي اخرج انظر أي شيء ترىٰ؟! قال: فخرجتُ إلىٰ رحبة دار الخليفة فرأيت خلقًا من الناس لا يحصي عددهم إلا الله، والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر في أذرعتهم، فقال لهم المروذي: أي شيء تعملون؟ فقالوا: ننظر ما يقول أحمد فنكتبه، قال المروذي: مكانكم. فدخل إلىٰ أحمد بن حنبل فقال له: رأيت قومًا بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه. فقال: يا مروذي أضل هؤلاء كلهم؟! أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء)[2].

٤ - إن مستويات الفهم للكلام عند الناس تتفاوت، ولكن الجميع يستوون أمام الرؤية بالعين المجردة، وذلك أيسر في إيصال المفاهيم التي يريد الداعية إيصالها للناس المقتدين به، ومما يدل علىٰ ذلك أن البخاري بوّب بابًا قال فيه: (باب الاقتداء بأفعال النبي ﷺ)، ثم ساق الحديث: اتخذ النبي ﷺ خاتمًا من ذهب فاتخذ الناس

(١) انظر مناقب الإمام أحمد ص٤٢٣.

(٢) المرجع السابق ص٤٤٥.

خواتيم من ذهب، فقال النبي ﷺ: «**إني اتخذت خاتمًا من ذهب**»، فنبذه وقال: «**إني لن ألبسه أبدًا**»، فنبذ الناس خواتيمهم[(١)]. قال ابن بطّال: (فدلّ ذلك على أن الفعل أبلغ من القول)[(٢)].

ولهذا أمثلة كثيرة؛ فإنه خلع خاتمه فخلعوا خواتيمهم في هذه القصة، ونزع نعله في الصلاة حينما أخبره جبريل أن فيهما أذىً فنزعوا، ولَمّا أمرهم عام الحديبية بالتحلّل وتأخّروا عن المبادرة رجاء أن يأذن لهم في القتال وأن ينصرفوا فيكملوا عمرتهم، قالت له أم سلمة: اخرج إليهم واذبح واحلق، ففعل فتابعوه مسرعين[(٣)]، فدلّ ذلك كله على أهمية القدوة وعظيم مكانتها.

٥ - إن النبي ﷺ قد حذّر الدعاة من المخالفة لِمَا يقولون؛ فبيّن ﷺ في الحديث الشريف حال الدعاة الذين يأمرون الناس وينهونهم وينسون أنفسهم؛ قال: «**أتيت ليلة أُسري بي على قومٍ تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلَّما قرضت وفت، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: خطباءُ أمتكَ الذين يقولون ما لا يفعلون، ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به**»[(٤)].

ولا يقتصر الخطر على الداعية وعلى دينه، بل يتعدّى إلى كل من يدعوهم.

وإن مما يذكر في هذا الشأن أن انحراف الداعية وخروجه عن النهج الصحيح هو في الوقت نفسه سببٌ في انحراف كل من تأثر به أو سمع منه؛ وما ذلك إلا بسبب أن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٢٩٨).

(٢) فتح الباري، ١٣/ ٢٧٥.

(٣) انظر المرجع السابق، ١٣/ ٢٧٥.

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٦٣٧). وحسنه الألباني في صحيح الجامع: (١٢٩).

سلوك الداعية وتصرفاته كلها مرصودة من قبل الناس، وجميع أفعاله وأقواله موضوعة تحت المجهر.

فليحتطِ الداعية لهذا الأمر المهم، ويراقب أفعاله وأقواله.. وليُرِ الله تعالىٰ من نفسه خيرًا.

٦ - إن جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلىٰ آخرهم كانوا قدوة حسنةً لأقوامهم، وهذا يدل علىٰ عِظَم القدوة الحسنة وأهميتها؛ ولهذا قال شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

٧ - إن الناس كما ينظرون إلىٰ الداعية في أعماله وتصرفاته ينظرون إلىٰ أسرته وأهل بيته، وإلىٰ مدىٰ تطبيقهم لِمَا يقول، وهذا يفيد ويبيّن أن الداعية كما يجب عليه أن يكون قدوة في نفسه يجب عليه أن يُقوِّم أهل بيته وأسرته، ويلزمهم بما يأمر به الناس، ويدعوهم إليه؛ ولهذه الأهمية كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا صعد المنبر فنهىٰ الناس عن شيء، جمع أهله فقال: «إني نهيت الناس كذا وكذا، وإن الناس لينظرون إليكم نظر الطير إلىٰ اللحم، وايم الله، لا أجد أحدًا منكم فعله إلا أضعفت له العقوبة ضعفين»[(١)].

رابعًا: صفات القدوة:

لن يكون الداعية قدوة لمدعويه حتىٰ تتوافر فيه جملة من الصفات الكريمة، والمواهب العالية، التي تيسر عليه مهمته وتجعله مقبولاً عند غيره. وهذه الصفات في

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٦٤٣).

جملتها لا بد أن تكون مقتبسة من إمام الدعاة نبينا محمد ﷺ، ولعلنا نذكر الصفات الكلية والأساس التي تدخل تحتها عدة صفات، فمن ذلك:

١- الإخلاص:

وهو أن يبتغي الداعية في عمله وجه الله، وأن يكون الباعث الحقيقي للعمل هو مرضاة الله، لا أن يعمل العمل من أجل أن يكون قدوة لمدعويه - إلا عند الحاجة إليه- وفي هذا مزلق خطير ينزلق فيه بعض الدعاة؛ وهو أن يتكلف العمل من أجل أن يكون قدوة للناس، وينسىٰ حاجة نفسه إليه، وإخلاص النية فيه. كما لا يغيب عن ذهن القدوة أن الإخلاص أصل في قبول العمل كما قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية، وإنما لا مرئ ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله، فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه**»[(١)].

ولأهميته وضرورته أمر به الحق تبارك وتعالىٰ، فقال في كتابه الكريم: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤]، لذلك ينبغي علىٰ القدوة أن يتزود بالإخلاص في دعوته وعبادته وذكره لله، وفي جهاده وسائر أعماله، وما يقوم به من وعظ وإرشاد وتوجيه ونصح، وما يقدمه من خدمات لأمته ومجتمعه، وبقدر ما يملك من تطبيق وعمل صادق مخلص يكون نجاحه في عمله، وثقة الناس به تزداد؛ لأنه يعمل بما يقول مخافة الله ﷻ بعيدًا عن أغراض النفس ونظر الناس، يبتغي وجه الله وتحقيق مرضاته؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٦٨٩)، ومسلم (١٩٠٧).

٢- الاستقامة على الإيمان:

يوجد الكثير من الصالحين في مجتمعاتنا، ولكن القليل من يخلص العمل ويستقيم علىٰ الإيمان ويسير في ركب عباد الرحمن، ولا خير ولا صلاح في شخص حاد عن الإيمان ولم يستقم علىٰ دين الله؛ لأنه سرعان ما ينعطف أمام التحديات وأمام الإغراءات، لذلك ينبغي الاستقامة علىٰ أمر الدين؛ وخاصة القدوة ومعلم الناس الخير؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت: ٣٠]، فالقدوة مشغول في مجاهدة نفسه واستقامتها وسياستها، وهذا المطلوب الأعلىٰ والنهج الأسمىٰ في بناء القدوات المستقيمة في حياتها وفق معتقداتهم الإيمانية؛ كما قال سفيان الثقفي قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: «**قل آمنت بالله، ثم استقم**»(١).

٣- استقلال شخصية القدوة:

إن استقلال الشخصية ركن رئيس وسمة بارزة من سمات القدوة؛ فهو شخص متحرر من التبعية والتقليد الساذج، فيكون مؤثرًا لا متأثرًا، فلا يليق بمن هو في موقع المسؤولية والقدوة أن يكون إمعة يخضع لضغوط الجهال والسفهاء، فيميل معهم حيث مالوا.

٤- الاعتدال والتوسط في أمور الحياة:

ينهج القدوة منهج التوسط في جميع أمور الحياة مع مراعاة الآداب الشرعية، ولا سيما في اللباس والمظهر والمأكل والاقتصاد وعلاقاته الاجتماعية مع الناس،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢).

والتوسط يعني الاعتدال والاستقامة، مما يجعل الناس ينظرون إلىٰ هذه الشخصية المتعادلة المستقيمة نظرة إعجاب فتدخل في قلوبهم لأن مظهر القدوة وتعامله مع الآخرين ينسجم مع المنهج الذي يدعو إليه، قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة: ١٤٣].

٥- التقوى:

التقوىٰ هي الأصل الكبير الذي تقوم عليه شرائع الدين وتوجيهاته وآدابه وأخلاقه، فالقلب الذي يستشعر مخافة الله ويستسلم لإرادته ويتبع المنهج الذي اختاره الله ويتوكل عليه وحده هو المؤهل للقيادة وأن يكون قدوة للناس.

والتقوىٰ تجعل القلب طاهرًا لا يعمل عملاً إلا وهو مراعٍ لله طالبًا رضاه؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥]، ولأهمية التقوىٰ كان ﷺ يسأل ربه ذلك، كما قال ﷺ: «**اللهم إني أسألك الهدىٰ والتقىٰ والعفاف والغنىٰ**»(١).

٦- العلم:

حتىٰ يكون الداعية قدوة حسنة لمدعويه، لا بد أن تكون أعماله صحيحة موافقة لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وهذا لا يتأتىٰ إلا بطلب العلم منهما والحرص علىٰ تطبيقه. ولقد بوب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابا هو (العلم قبل القول والعمل)(٢) لقوله تعالىٰ: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾[محمد: ١٩]، فبدأ بالعلم. وأورد ابن حجر قول ابن المنير: أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٢١).

(٢) صحيح البخاري ١/ ٢٤.

فهو مقدم عليهما، لأنه مصحح للنية المصححة للعمل. والخطاب وإن كان متناولا للنبي ﷺ فهو متناول لأمته، وخاصة الدعاة منهم(١).

٧- المكانة:

لا بد أن يكون للقدوة مكانة في قلوب من يقتدون به، فإذا لم يثق الشباب بقدوتهم ولم يحبوه كان الانتفاع به قليلاً إن لم يكن معدومًا. وغالبًا ما يكون الباعث لدىٰ الشباب لتقليد شخص ما والاقتداء به هو الإعجاب بما يتميز به من صفات الكمال. والإنسان عندما يعجب بسلوك معين، أو بشخصية يجد انجذابًا نفسيًا داخليًا للاقتداء بها في عموم السلوك والأخلاق، أو في جزئيات معينة، وتجد أن الدافع لذلك هو حب التجانس مع هذه الشخصية نتيجة الإعجاب. ومن هذا المنطلق تأثر كثير من الشباب بالفنانين والرياضيين؛ لأن وسائل الإعلام دأبت علىٰ إظهارهم بصور الأبطال الفاتحين، والعظماء البارزين، فأعجب بهم الشباب، وأحبوهم وقلدوهم، بل لقد اعتبرهم البعض -للأسف الشديد- المثل الأعلىٰ في الحياة.

٨- الأخلاق الحسنة:

كلما كانت أخلاق الداعية أقرب إلىٰ الأخلاق النبوية الكريمة، كان أكثر نفعًا وأكثر محبة وإلفًا في قلوب المدعوين، فتتم الفائدة، وتكمل به القدوة. وبعض الأخلاق أكثر تأثيرًا في نفوس المدعوين، وأكثر جذبًا لاهتماماتهم من بعضها الآخر؛ مما يحتم علىٰ الداعية تفقد تلك الأخلاق وتمثلها.

---

(١) فتح الباري ١/ ١٦٠.

خامسًا: الوسائل المعينة للداعية على تمثل صفات القدوة:

ثمة وسائل معينة ومساعدة للداعية إلىٰ الله علىٰ تمثل صفات القدوة، هو بحاجة إلىٰ استحضارها دائمًا، وأن تكون ماثلة أمام عينيه، متذكرًا لها إبّان دعوته؛ فهي بمثابة دوافع معنوية للداعية تدفعه وتحثه علىٰ تمثل صفات القدوة الحسنة، وتمنعه من الحيد عن جادتها كلما فترت النفس وأرادت استبدال الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير. ولعلنا نشير إلىٰ أهم هذه الوسائل:

١) الاستعانة بالله سبحانه وتعالىٰ، والإكثار من دعائه، والتضرع إليه؛ كما قال سبحانه وتعالىٰ حاكيًا دعاء عباده: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

٢) المطالعة المستمرة في حياة السلف الصالح، والعلماء، والدعاة من القدوات السابقة الذين سطروا للأمة أروع النماذج في كل نواحي الخير.

٣) صحبة القدوات العاملة؛ فهم خير معين للثبات علىٰ الخير، والارتقاء بالنفس إيمانيًا، وخلقيًا، وعلميًا، والتزام كل نواحي الخير؛ حيث يعيش الداعية في مناخ النصيحة والتربية، والتذكير، والتواصي، ونقل الخبرات والتجارب.

٤) تذكر الأجر والحسنات لمن دل علىٰ الخير وكان سببًا في لزوم الناس للخير، مستشعرًا النصوص الربانية والنبوية في ذلك؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، وقوله ﷺ: «**من سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حسنةً، فعُمِل بها بعده، كُتِبَ له مثلُ أجرِ مَن عمل بها. ولا ينقصُ من أجورِهم شيءٌ، ومن سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سيئةً، فعُمِل بها بعدَه، كُتب عليه مثلُ وِزرِ**

من عمل بها، ولا ينقصُ من أوزارِهم شيءٌ»[(١)]. وقوله ﷺ: «**من دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»[(٢)].

٥) تعلم العلم النافع وتعليمه للناس؛ فإنه خير سبيل لتمثل صفات القدوة الصالحة، مستشعرًا قوله ﷺ: «**أتيت ليلة أُسري بي علىٰ قومٍ تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلَّما قرضت وَفَتْ، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: خطباءُ أمتكَ الذين يقولون ما لا يفعلون، ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به**»[(٣)].

٦) التأمل في نعيم الجنة وأنها درجات ورتب ومنازل، ولا شك أن للقدوات الصالحة أكبر الحظ والنصيب من تلك الدرجات العالية والرتب العلية والمنازل الرفيعة؛ وذلك لأنهم سعوا في تعبيد العباد لرب العباد، وتلك هي الغاية من الوجود الإنساني في هذه الحياة الدنيا؛ قال ﷺ: «**إنَّ أهلَ الجنَّةِ ليتَراءَونَ في الغُرفةِ كما يتَراءَونَ الكَوكبَ الشَّرقيَّ أوِ الكَوكبَ الغَربيَّ الغاربَ في الأُفقِ والطَّالعَ، في تفاضُلِ الدَّرجاتِ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ أولئِكَ النَّبيُّونَ؟ قالَ: بلَىٰ، والَّذي نفسي بيدِهِ أقوامٌ آمنوا باللهِ ورسولِهِ وصدَّقوا المُرسَلينَ**»[(٤)].

ويقول ﷺ: «**ذَرِ الناسَ يَعملُونَ؛ فإنَّ الجنةَ مِائةُ درَجةٍ، ما بيْنَ كلِّ درَجتيْنِ كمَا بين السماءِ والأرضِ، والفِردوسُ أعْلاها درجةً وأوْسَطُها، وفوقَها عرْشُ الرحمنِ،**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠١٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٧٤).

(٣) تقدم تخريجه ص ١٥٤.

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٥٥)، ومسلم (٢٨٣١) واللفظ له.

ومِنها تَفَجَّرُ أنهارُ الجنةِ، فإذا سألتُمُ اللهَ فاسْألُوهُ الفِردوسَ»[1]. وأي عمل أعظم من أن يكون الداعية إلىٰ الله قدوة حسنة للناس؟! ولهذا متىٰ ما استشعر الداعية إلىٰ الله هذه الوسائل، واستحضر تلك الفضائل، ومنّىٰ نفسه بتلك المنازل الرفيعة، والدرجات العلية، كان مسارعًا للخيرات، مسابقًا لتمثل صفات القدوات.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧٩٠). واللفظ للترمذي (٢٥٣٠).

المبحث الثاني
المهمات التربوية للداعية

لا شك أن الدعوة إلىٰ الله من أفضل الأعمال وأحسنها وأقربها إلىٰ الله؛ لما فيها من تعبيد الناس لرب الناس، وإخضاع المخلوق للخالق، كما أن فيها فرصًا كثيرة للتزود من الحسنات ورفع الدرجات وتكفير السيئات؛ كما قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]. وحتىٰ يقوم الداعية بواجبه علىٰ أكمل وجه فلا بد أن يبدأ بنفسه - كما سبق في الفصل الثاني- ثم بمن يعول بدءًا من الأسرة إلىٰ المجتمع الكبير، وهذا ما سيبينه هذا المبحث في العناصر الآتية:

١ - مهمات الداعية في الأسرة:

لا يختلف اثنان أن من أهم الشرائح الدعوية المستهدفة شريحة الأسرة، وهم من أولىٰ الناس دخولاً في النصوص الواردة والمرغبة في فضل الدعوة إلىٰ الله، بل ربما دعوتهم أوجب من دعوة غيرهم؛ ولهذا جاءت النصوص الشرعية العظيمة في تعظيم حقهم من الدعوة إلىٰ الله علىٰ الخصوص، وأنهم أولىٰ الناس إنقاذًا من النار؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، كما أنهم أولىٰ من سيُسأل عنهم المربي أو الراعي يوم الدين، يوم يقوم الناس لرب العالمين، كما قال ﷺ:

«كلُّكم راعٍ فمسؤولٌ عن رعيتِه، فالأميرُ الذي علىٰ الناسِ راعٍ وهو مسؤولٌ عنهم، والرجلُ راعٍ علىٰ أهلِ بيتِه وهو مسؤولٌ عنهم، والمرأةُ راعيةٌ علىٰ بيتِ بعلِها وولدِه، وهي مسؤولةٌ عنهم، والعبدُ راعٍ علىٰ مالِ سيدِه وهو مسؤولٌ عنه، ألا فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِه»[1]. وليس الأبعد بأولىٰ من الأقرب، بل الأقرب أولىٰ لعظم حقه وسهولة تبليغه، ولهذا جاء في القرآن الكريم: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وهذا وإن كان خطابًا لرسول الله ﷺ، ولكن معناه يشمل الداعية إلىٰ الله، فعليه أن ينذر الأقربين إليه، مبتدئًا بأفراد أسرته وأقاربه ومن يعرفه، ولا بد أن يعي الداعية أن مسؤوليته علىٰ أسرته تشمل القيام بشؤونهم المادية من توفير الطعام والشراب والسكن، ونحو ذلك من الأشياء المادية، كما تشمل شؤونهم الدينية؛ بتعليمهم ما يلزمهم من أمور الإسلام ودعوتهم إليه؛ قال تعالىٰ مثنيًا علىٰ نبيه إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٥٥].

وعليه؛ فينبغي أن يستشعر الداعية إزاء أسرته أنه بين فرصة ومسؤولية؛ فالفرصة متمثلة بالأجور والحسنات المضاعفة، والدرجات العالية، والمقامات الرفيعة إزاء ما يقدمه من دعوة وإصلاح لأسرته يكون هو سببًا فيه. وفي المقابل عليه أن يستشعر أنها مسؤولية عظيمة وأمانة ثقيلة؛ لا يجوز له أن يفرط فيها ويهملها، أو لا يحملها بحقها ولا يجعلها من أولوياته وأهدافه، فما بالنا بمن هو علىٰ العكس من ذلك: يهيئ لهم سبل الفساد ويذللها لهم ولا يبالي بانحرافهم وهلكتهم؟!

ومن المهمات المنوطة بالداعية إزاء أسرته ما يلي:

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٦٣).

١) غرس الإيمان وتقويته في قلوبهم؛ وذلك بتقوية تعظيم الله في نفوسهم، وتحرير قلوبهم من التعلق بغير الله، وتقوية التقوىٰ في نفوسهم، وتقوية مراقبة الله تبارك وتعالىٰ، والعناية بأعمال القلوب لديهم، وحثهم علىٰ الفرائض والنوافل، وحضهم علىٰ الاعتناء بالقرآن الكريم تلاوة وحفظًا وتدبرًا وعملاً، ووعظهم وتذكيرهم بالدار الآخرة، والاعتناء بدراسة سير السلف الصالح معهم.

٢) تقوية البناء العقلي والعلمي لديهم؛ وذلك بغرس الشعور لديهم بالحاجة للتعلم، مع تعليمهم العلوم الضرورية وتفقيههم في الدين، وغرس تعظيم النصوص الشرعية لديهم، وتحقيق التكامل العلمي، وتنمية مهاراتهم العقلية؛ كالقراءة الذكية، والتعبير اللغوي السليم، والاستماع الناقد، والاستنباط السليم، كما يعلمهم أسس التفكير العلمي وطرق حل المشكلات، وينمي لديهم كذلك الاتجاهات العقلية السليمة مثل: الحياد، والموضوعية، واحترام آراء الآخرين وأفكارهم، كما يجتهد في تخليصهم من معوقات التفكير السليم؛ كالتعصب، والمبالغة والغلو، والتعميم الخاطئ، والالتزام بالأفكار الذائعة، كما يدربهم علىٰ أشكال التفكير السليم، وينمي لديهم الإبداع والابتكار والقدرة علىٰ التعلم الذاتي.

٣) تنمية الأخلاق الحسنة لديهم؛ وذلك بتنقية نفوسهم من الأخلاق السيئة، والسعي في تحقيق العفة لديهم والبعد عن الفواحش، وتربيتهم علىٰ حفظ اللسان والمنطق، كما يحرص علىٰ غرس الجدية والعزة والشجاعة والوقار ومعالي الأمور والمروءة في نفوسهم، كما يربيهم علىٰ السمت والهدي الحسن والأدب مع الأكابر، ورعاية آداب المجالس، وكذا يربيهم علىٰ الرجولة والخشونة والبعد عن الترف، كما يربيهم علىٰ العزيمة واغتنام الأوقات والبعد عن الكسل، ويحبب في نفوسهم حب

النظام في الحياة والتفكير، مع الاعتناء بدراسة شمائل النبي ﷺ معهم ودراسة أبواب الأدب والسلوك.

٤) تنمية الجانب الاجتماعي لديهم؛ وذلك بربط الأولاد بالرفقة الصالحة، وتعويدهم علىٰ تحمل المسؤولية، وإعدادهم للحياة المادية، وتنمية مشاعر البر والصلة لديهم؛ لاسيما بر الوالدين وصلة الأرحام، وتنمية القدرة علىٰ بناء العلاقات الاجتماعية الناجحة، وتنمية الشعور بالمسؤولية الاجتماعية وأهمية التعاون والعمل الجماعي، ويربيهم علىٰ الاهتمام بأحوال المسلمين ويعزز لديهم شرف الانتماء للأمة الإسلامية.

٥) تحقيق الاستقرار النفسي والصحة النفسية لديهم؛ وذلك بإشباع حاجاتهم النفسية، وتوجيه انفعالاتهم وضبطها، وتوجيه عواطفهم وضبطها، كما يحرص علىٰ وقايتهم من الانحرافات والاضطرابات النفسية، وتهذيب دوافعهم وإشباعها بالطرق المشروعة، ويسعىٰ في تقوية إراداتهم، وغرس الثقة في نفوسهم.

٢ - مهمات الداعية في مجتمعه:

ينبغي للداعية أن يستشعر عالمية الدعوة إلىٰ الله مستحضرًا قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ [ص: ٨٧ - ٨٨]، وقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]. وهذا يقوده إلىٰ عدم اختزال دعوته في أسرته والمقربين منه، بل ينبغي أن يوسع دائرة المستهدفين في دعوته بدءاً بنفسه وأسرته - وقد تطرقنا لذلك فيما سلف- ثم أقربائه وعشيرته؛ فهم من أولىٰ الناس بدعوته، متذكرًا قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عندما نزلت هذه الآية: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]: ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتىٰ صعد الصفا، فهتف: «**يا صباحاه**»، فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه، فقال: «**يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب**»، فاجتمعوا إليه، فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟**»، قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»، قال: فقال أبو لهب: تبا لك أما جمعتنا إلا لهذا؟! ثم قام فنزلت هذه السورة: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[(١)]. ثم تتسع الدائرة لتسع جيرانه فلهم عليه حق في دعوتهم والإحسان إليهم، وقد قال ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره**»[(٢)]. ولا يختلف اثنان أن من أعظم إكرام الجار دعوته إلىٰ الله، والسعي في توجيهه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٧).

وإرشاده لما فيه صلاح الدنيا والآخرة، ثم تتسع الدائرة لتشمل المجتمع بعد ذلك بشرائحه المتعددة؛ كصحبة العمل، والأصدقاء وغيرهم.

وينبغي للداعية إزاء هذه الشرائح المتعددة أن يعيش همومهم ويحس بآلامهم؛ فيفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم قدر استطاعته، فإذا سمع بمصيبة حلَّت بأحدهم تألم لها ولو كان لديه بعض التقصير، وكذا أن يتأثر لأخطائهم وانحرافاتهم عن الدين، فيحزن لانتشار الفسق والمعاصي بينهم حزنًا لا يدفعه لاعتزالهم إنما يدفعه لأن يشعر أنه كالطبيب معهم يحاول إنقاذهم، فإن لم يدرك ذلك كله فليقلل من هذا الانحراف بقدر ما يستطيع. وهو ما يسميه أهل العلم بمعايشة الناس ومخالطتهم والصبر علىٰ أذاهم من أجل دعوتهم وتوجيههم وإرشادهم. قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (الإنسان مدني بالطبع، لا بد له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات واعتقادات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذىٰ والعذاب من وجه آخر، فلا بد له من الناس ومخالطتهم، ولا ينفك عن موافقتهم أو مخالفتهم. وفيٰ الموافقة ألم وعذاب إذا كانت علىٰ باطل، وفيٰ المخالفة ألم وعذاب إذا لم يوافق أهواءهم واعتقاداتهم وإراداتهم، ولا ريب أن ألم المخالفة لهم في باطلهم أسهل من الألم المترتب علىٰ موافقتهم)[1].

وعليه فإن مخالطة الداعية لمجتمعه قد تعرضه لمشقة أو أذىٰ، وقد بين النبي ﷺ أفضلية من يخالط الناس مخالطة يأمرهم فيها بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحسن معاملتهم؛ فإنه أفضل من الذي يعتزلهم، ولا يصبر علىٰ المخالطة،

(١) إغاثة اللهفان ٢/ ١٩٣.

والأحوال تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان، ولكل حال مقال، فقال ﷺ: «**المسلم إذا كان مخالطًا الناسَ ويصبر علىٰ أذاهم، خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر علىٰ أذاهم**»[(١)]. كما أن مخالطة الداعية لمجتمعه هي مخالطة دعوة وتوجيه، ونصح وتعليم، وتأليف وأخوة؛ فعندما يتلقىٰ الناس الدعوة ممن يعيش معهم واقعهم، ويشاركهم آمالهم وآلامهم، فإن ذلك أدعىٰ لاستجابتهم له، والداعية الذي آتاه الله العلم ورزقه الحكمة في الدعوة، مع الإخلاص له تعالىٰ، يعلم أن أفضل الأعمال وأحبها إلىٰ الله ما أفضىٰ إلىٰ مرضاته، ويعلم أن الدعوة إلىٰ الله تفتح له أبوابًا عديدة لتحصيل الأجر، لتعدي نفعها للناس، وذلك خير له من القيام بالعبادات التي يقتصر نفعها عليه. قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (والعالم الذىٰ قد عرف السنة والحلال والحرام، وطرق الخير والشر، مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم في دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح)[(٢)].

كما أن مخالطة الداعية لمجتمعه ستعرفه بعاداتهم وأخلاقهم، ومواطن الضعف والقوة فيهم، وينكشف له ما يشيع بينهم من معروف ومنكر، فيتيسر له القيام بالاحتساب عليهم، ولو أنه بقي في منزله، مغلقًا بابه لما أدرك وعلم ما يشيع بين الناس من المنكرات، فمخالطته لهم تجعله يدعو علىٰ علم وبصيرة بأحوالهم، ويكون هو العنصر المؤثر في المجتمع، إضافة إلىٰ أن الناس جُبلوا علىٰ حب من يجلب لهم النفع، ويدفع عنهم الشر، دون أن تتعلق مصلحته بأي منهم، بل احتسابًا لوجه الله، ولن يتمكن الداعية من خدمة الناس وقضاء حوائجهم من خلال ترديد

(١) أخرجه أحمد (٥٠٢٢)، والترمذي (٢٥٠٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٥١).
(٢) عدة الصابرين ص١١٥.

الكلام فحسب، بل إنه في كثير من الأحيان تَحُولُ همومُ الناس ومشاكلُهم بينهم والتلقي منه، وتصبح هذه الهموم سدًا منيعًا في وجه الدعوة، فعلىٰ الداعية حينئذ أن يبذل ما يستطيع من جهد لإزالة هذه العوائق من طريق دعوته، وذلك كله لا يتم إلا بمخالطته للناس في مجتمعه. ولقد كانت مشاركة الناس معيشتهم ومجالسهم والتحدث إليهم والسماع منهم هي ديدنه ﷺ في معظم أحواله، حتىٰ نقل الصحابة لنا أدق الأمور والتفاصيل في حياته. وبعد الفتح والتمكين استمر عليه الصلاة والسلام علىٰ المنهج نفسه، فلم يعتزل الناس، أو يغلق دونهم باب قصر أو بيت، بل إنه يخالطهم كلهم بجميع طبقاتهم، بلا إهمال لأحد منهم، أو تمييز بين غني وفقير، أو حر وعبد، فدعوته للناس كافة، بل إنه لا يستهين حتىٰ بالأطفال الصغار حين أحضرهم أهلوهم له ﷺ فمسح علىٰ رؤوسهم؛ فأطفال اليوم هم رجال الغد، ولم يهمل النساء، فهن شقائق الرجال، ولم يفرق في الدعوة بينهن والرجال، بل أفردهن ببيعة خاصة، ومجالس خاصة للتعليم.

لذا، فإنه من الخطأ أن ينقطع الداعية في مسجد أو زاوية ويحبس نفسه في بيته، ويمتنع عن الخروج، ويظن أن في خروجه ومخالطته للناس تبذلاً لهم يسقطه من أعينهم، ويذهب هيبته من قلوبهم؛ فإن ذلك من كيد الشيطان ومكره، ومدخلاً واسعا لظهور الكبر والعجب في أخلاقه ونفسه مما يحبط عمله. كما أن استنكاف الداعية عن الاختلاط بالناس بحجة بعدهم عن الإسلام وكثرة انحرافاتهم سيزيد المشكلة تعقيدًا، ويوسع الهوة بين هؤلاء والإسلام، وإذا كان الناس مرضىٰ، واستنكف الطبيب عن معالجتهم، فإن المرض سوف يستفحل، وقد يقتل الطبيب نفسه، فضلا عن المريض.

٣ – موازنة الداعية بين مهماته التربوية ومسؤولياته الدعوية:

التوازن: هو إعطاء كل شيء حقه من غير زيادة ولا نقص، وهو ينشأ عن معرفة حقائق الأشياء علىٰ ما هي عليه، ومعرفة حدودها وغاياتها ومنافعها، وهو الحكمة المنوه بها في قوله تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. والداعية إلىٰ الله هو أولىٰ الناس بتحقيق مبدأ التوازن في حياته بين مهماته التربوية الأسرية ومسؤولياته الدعوية؛ وذلك لأنه أولىٰ من يمثل الإسلام وتعاليمه ومفاهيمه. ومن خصائص الدين الإسلامي أنه دين شامل؛ فالإسلام يريد من المسلم أن يبلغ الكمال المقدور له بتناسقٍ، وفي جميع شؤونه، فلا يقبل علىٰ جانب واحد -أو عدة جوانب- ويبلغ فيه المستوىٰ العالي من الكمال، بينما يهمل الجوانب الأخرىٰ حتىٰ ينزل فيها إلىٰ دون المستوىٰ المطلوب، إنَّ مَثَله مَثَل من يقوي يديه ويترك سائر أعضائه رخوة هزيلة ضعيفة، وعلىٰ هذا الأساس فَهِمَ الصحابة الكرام مثالية الإسلام، فلم تأسرهم عبادة، ولم تقيدهم عادة، وإنما تقلَّبوا في جميع العبادات والأحوال، وبلغوا فيها المستوىٰ العالي من الكمال، فلم يحبسوا نفوسهم في مكان، ولا علىٰ نوع من العبادات، ولا علىٰ نمطٍ معين من الأعمال، وإنما باشروا الجميع، فعند الصلاة كانوا في المسجد يصلون، وفي حلقات العلم يجلسون معلمين أو متعلمين، وعند الجهاد يقاتلون، وعند الشدائد والمصائب يواسون ويساعدون، وهكذا كان شأنهم في جميع الأحوال.

ومن المعلوم أن حياة الداعية الحق تقوم علىٰ الموازنة الحكيمة في أموره كلها، سواء منها ما كان من أمور الدنيا أو الآخرة، فلا تشغله أمور الدنيا عن أمور الآخرة،

ولا تشغله أمور الآخرة عن أمور الدنيا، وإنما يوازن في أعماله وتصرفاته بين ما يجب عليه فعله لتستقيم أمور حياته في هذه الدنيا، وما يجب عليه فعله ليضمن الفوز في الآخرة والنجاة من النار.

ومن المساوئ التي تقع في حياة بعض الدعاة ذلك الالتباس في بعض الأمور؛ حيث يظن أن العناية بأسرته وتربيته لأولاده وتوجيههم التوجيه الإسلامي السليم من أمور الدنيا فيتساهل فيها، وهي في الحقيقة من أعمال الدنيا والآخرة معا. ومن هنا نراه يفضل علىٰ عنايته بأسرته الانصراف إلىٰ توجيه الناس ودعوتهم إلىٰ الحق، وتبيان معالمه في شتىٰ شؤون الحياة، فإذا هو داعية كبير من الدعاة، لا تكاد تراه إلا في حلقة من حلقات التوجيه، أو في مؤتمر من مؤتمرات الإصلاح، أو في اجتماع يتدارس فيه الدعاة أمور الدعوة والدعاة، ومثل هذا الداعية الصادق المندفع إلىٰ العمل في سبيل الله، لا يكاد يرىٰ زوجه وأولاده إلا وقتًا ضئيلاً لا يكفي للتعرف علىٰ أحوالهم، والوقوف علىٰ مسار تكوينهم النفسي والعقلي والفكري والاجتماعي، وحجته في ذلك أنه مشغول بأمور الدعوة، ولا وقت لديه للجلوس إلىٰ أولاده ليتفقد أحوالهم، ويعرف الكتاب الذي يقرأون، والرفيق الذي يصاحبون، والأعمال والهوايات التي يزاولون. وإذا هو يفاجأ بعد مدة تطول أو تقصر بانحراف ابنه أو ابنته، أو تقصيرهما علىٰ الأقل في واجباتهما الإسلامية، أو غير ذلك مما لا ينبغي أن يقع في بيت مسلم، علىٰ رأسه داعية عامل في سبيل الله. وقد يقع هذا الانصراف والذهول من الداعية، فترتد مساوئه وأضراره علىٰ الأولاد؛ ولاسيما البنين. وما كان شيء من ذلك ليقع غالبًا لو أن الداعية قد وقر في نفسه أن واجبه نحو أسرته أكبر من واجبه نحو الناس الآخرين، وأن مسؤوليته عن صياغة نفوس أسرته وتربيتهم التربية

الإسلامية اللائقة مقدمة علىٰ مسؤوليته عن دعوة الآخرين إلىٰ الخير وتوجيههم التوجيه السليم.

فخير الدعاة خيرهم لأهله، والداعية الحكيم هو الذي يوازن بين واجباته نحو أسرته وواجباته نحو دعوته، وذلك بإعطاء كل ذي حق حقه من الوقت والجهد والعناية والاهتمام، بحيث لا يطغىٰ جانب علىٰ جانب.

وليس هذا الأمر بالعسير إذا عرف الداعية كيف ينظم وقته، وكيف يوزع واجباته علىٰ وقته. فالتخطيط وتنظيم الوقت وتوزيع الأعمال علىٰ الأوقات من أهم ما ينبغي أن يتحلىٰ به الداعية المعاصر في هذه الأيام التي كثرت فيها الأعمال وتشعبت، وازدادت الضغوط علىٰ الإنسان وتعددت.

وإن لنا في سيرة الرسول ﷺ لأسوة كبيرة؛ فقد كان صلوات الله عليه يصدع بدعوة، ويبني أمة، وينشئ مجتمعًا، ويصوغ نفوسًا، فلا يصرفه هذا كله عن القيام بواجباته الأخرىٰ نحو أزواجه وأولاده، وأقاربه وأرحامه، دون أن يطغىٰ جانب من هذه الجوانب علىٰ جانب آخر.

وكذا أصحابه -رضوان الله عليهم- فقد رباهم ﷺ علىٰ التوازن وإعطاء كل ذي حق حقه كما حصل بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ عن عون بن أبي جحيفة، عن أبيه، قال: آخىٰ النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأىٰ أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال: كل! قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتىٰ تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلما كان من آخر الليل

قال: سلمان قم الآن، فصليا فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتىٰ النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «**صدق سلمان**»[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٦٨).

المبحث الثالث
علاقة الداعية بأصناف الناس

أخبرنا القرآن الكريم أن الناس علىٰ ثلاث درجات أو منازل: في الدنيا، وعند الموت، وفي الآخرة:

ففي الآخرة الناس أزواج ثلاثة؛ قال تعالىٰ: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ [الواقعة: ٨ - ١٠].

وعند الموت الناس كذلك ثلاث منازل؛ قال تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٩٤].

أما في الدنيا، فالناس إما مسلمون، أو غير مسلمين، أو منافقون. والمسلمون ثلاثة أصناف: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات؛ قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣٢]. والداعية مأمور بدعوة أصناف الناس كلها، ومن ثم يستهدف هذا المبحث توضيح علاقة الداعية بأصناف الناس وواجبه نحوهم.

وفيما يلي بيان ذلك:

أولاً: الآداب الشرعية عند الخلاف مع أصناف الناس:

الخلاف أمر مسلم به في دنيا البشر، وهو سنة الله ﷻ في خلقه؛ فهم مختلفون في ألوانهم، وألسنتهم، وطباعهم، ومدركاتهم، ومعارفهم، وعقولهم، وأشكالهم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

وإذا كان طبعيًا أن يحدث الخلاف بين الدعاة والمدعوين، فإن المهم هو أن نعرف: كيف يحصل الخلاف؟ وكيف نتعامل معه؟ فنحن اليوم نعيش في واقع متغير أبرز سماته الانفتاح؛ لا سيما مع توافر وسائل التواصل الاجتماعي التي ساعدت في توسيع المعرفة، والاطلاع علىٰ ثقافات الآخرين، وأصبحت المعلومة سهلة الوصول، بل أصبح هناك تعدد وتنوع في المعلومة الواحدة، بل تنافسٌ وتسابقٌ في طريقة إيصالها للآخرين، فعلىٰ الدعاة أن يعوا ذلك جيدًا، ويكونوا علىٰ قدر الحدث والمسؤولية.

وثمة آداب شرعية إذا اتبعها الدعاة عند خلافهم مع المدعوِّين اهتدوا بحول الله ومشيئته ورحمته إلىٰ الحق، ومن هذه الآداب ما هو عامٌ في التعامل مع الناس بكافة أصنافهم، ومنها ما يخص تعامل الداعية مع المسلمين فحسب، وسيدرك القارئ ذلك بنفسه عند مطالعته لكل أدب من هذه الآداب، ولعلنا نشير إلىٰ أهمها فيما يلي:

١) التثبت من قول المخالف:

أول ما يجب علىٰ المسلم فعله عند الخلاف: أن يتثبت في النقل، وأن يعلم حقيقة قول المخالف؛ وذلك بالطرق الممكنة؛ كالسماع من صاحب الرأي نفسه، أو قراءة ما ينقل عنه من كتبه لا مما يتناقله الناس شفاهًا. وقد أمرنا الله بالتثبت فقال

سبحانه وتعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

٢) تحديد محل التنازع والخلاف:

كثيرًا ما يقع الخلاف بين المخالفين، ويستمر النقاش والردود وهم لا يعرفون بالتحديد ما نقاط الخلاف بينهم، ولذلك يجب قبل الدخول في نقاش أو جدال تحديد مواطن الخلاف تحديدًا واضحًا حتىٰ يتبيَّن أساس الخلاف، ولا يتجادلان في شيء قد يكونان متفقين عليه، وكثيرًا ما يكون الخلاف بين المختلفين في الألفاظ فقط لا المعاني، فلو استبدل أحد المختلفين لفظة بلفظة أخرىٰ لزال الإشكال بينهما. ولذا لزم تحديد محل الخلاف تحديدًا واضحًا.

٣) لا تتهم النيات:

مهما كان مخالفك مخالفًا للحق في نظرك فإياك أن تتهم نيته، افترض في المسلم الذي يؤمن بالقرآن والسنة ولا يخرج عن إجماع الأمة، افترض فيه الصدق والإخلاص، ومحبة الله ورسوله، والرغبة في الوصول إلىٰ الحق، وناظره علىٰ هذا الأساس، وكن سليم الصدر نحوه. لا شك أنك بهذه الطريقة ستجتهد في أن توصله إلىٰ الحق إن كان الحق في جانبك، وأما إذا افترضت فيه من البداية سوء النية وقبح المقصد، فإن نقاشك معه سيأخذ منحىٰ آخر هو: إرادة كشفه وإحراجه، وإخراج ما تظن أنه خبيئة عنده، وقد يبادلك مثل هذا الشعور، فينقلب النقاش عداوة، والرغبة في الوصول إلىٰ الحق رغبة في تحطيم المخالف، وبيان ضلاله وانحرافه.

٤) أخلص النية لله:

اجعل نيتك هي الوصول إلىٰ الحق، وإرضاء الله سبحانه وتعالىٰ، وجمع الكلمة وإصلاح ذات البين. فإذا كانت هذه نيتك فإنك تثاب علىٰ ما تبذله من جهد في هذا الصدد؛ قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]. وقال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ**»(١).

٥) اتهم رأيك:

ينبغي علىٰ المسلم أن يضع احتمال أن يكون الحق مع مخالفه -وإن كان متأكدًا من صواب رأيه- فبهذا الشعور يسهل عليه تقبل الحق عندما يلوح له.

٦) قبول الحق من المخالف حقٌ وفضيلة:

إن قبول الحق من مخالفك حق وفضيلة؛ فالمؤمن يجب أن يذعن للحق عندما يتبينه، ولا يجوز له ردُّه ؛ لأن رد الحق قد يؤدي إلىٰ الكفر كما قال ﷺ: «**لا تماروا في القرآن فإن مراء في القرآن كفر**»(٢). والمماراة معناها المجادلة ودفع دلالته بالباطل؛ لأن هذا يكون تكذيبًا لله وردًّا لحكمه، وليس تكذيبًا للمخالف، ورد الحق كبرًا من العظائم، وقد فسر النبي ﷺ الكِبْر، فقال: «**الكبر: بطر الحق وغمط الناس**»(٣).

٧) اسمع قبل أن تُجِيب:

من آداب الخلاف أن تسمع من مخالفك قبل أن ترد، وأن تحدد محل الخلاف قبل أن تخوض في الموضوع.

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٦٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٥٤٢). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٤٤).

(٣) أخرجه مسلم (٩١).

٨) **اجعل لمخالفك فرصة مكافئة لفرصتك:**

يجب علىٰ كل مختلفين أن يعطي كل منهما الآخر عند النقاش فرصة مكافئة لفرصته؛ فإن هذا أولىٰ درجات الإنصاف.

٩) **لا تقاطع:**

انتظر فرصتك في النقاش، ولا تقاطع مخالفك حتىٰ ينتهي من كلامه.

١٠) **اطلب الإمهال إذا ظهر ما يحتاج أن تراجع فيه نفسك:**

إذا ظهر لك أن أمرًا ما يجب أن تراجع فيه النفس، وتتفكر فيه لتتخذ قرارًا بالعدول عن رأيك أو إعادة النظر فيه، فاطلب الإمهال حتىٰ تقلِّب وجهات النظر، وأما إذا تحققت من الحق فبادر بإعلانه والإذعان له؛ فإن هذا هو الواجب عليك؛ فالذي يخاصمك بالآية والحديث يطلب منك في الحقيقة الإذعان إلىٰ حكم الله وحكم رسوله. وكل من ظهر له حكم الله وحكم رسوله وجب عليه قبوله فورًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

١١) **لا تجادل ولا تمارِ:**

لا يكن دخولك في نقاش مع أخيك المسلم هدفه الجدال والمماراة، بل يجب أن يكون مقصدك معرفة الحق، أو توضيحه لمخالفك؛ لأن الجدال مذموم والمماراة مذمومة، والجدال والمماراة: أن يكون الانتصار لرأيك، وقطع خصمك وإثبات جهله أو عجزه، وإثبات أنك الأعلم أو الأفهم أو الأقدر علىٰ إثبات الحجة.

١٢) حدد مصطلحاتك واعرف جيدًا مصطلحات مخالفك:

كثيرًا ما يتجادل اثنان أو يختلف قوم ولا يكون سبب خلافهم إلا أنهم يستعملون كلمات ومصطلحات يفهمها كل منهم بمعنىٰ يختلف عما يفهمها به الآخر.

من أجل ذلك يجب عليك أن تحدد معاني كلماتك التي قد يفهمها مخالفك علىٰ صورة أخرىٰ، وكذلك المصطلحات التي تستعملها، واسأل مخالفك عن معاني كلماته ومصطلحاته حتىٰ تعرف مراده من كلامه.

ومن المصطلحات التي يختلف في معناها الناس في الوقت الحاضر: المنهج، طريق السلف، وسائل الدعوة، أساليب الدعوة، البدعة المكفرة، الهجر، التطرف، الإرهاب، الخروج...إلخ، وكذلك يجب أن تعلم أن مخالفك يفهم هذه المصطلحات كما تفهمها أنت، أو كما هو معناها الحقيقي في اصطلاح العقيدة، الأصول، البدعة.

١٣) إذا تيقنت أن الحق مع مخالفك فاقبله، وإذا قبل منك الحق فاشكره:

لا سيما إذا كان رأيًا مجردًا، ورأيت أن الحق معه، وأن المصلحة الراجحة في اتباعه فاقبله؛ لأن المسلم رجَّاع إلىٰ الحق. وأما إذا وافقك مخالفك، ورجع عن قوله إلىٰ قولك فاشكر له إنصافه، وقبوله للحق، واحمد الله أن وفقك إلىٰ إقالة عثرة لأخيك، وبيان حق كان غائبًا عنه.

١٤) أرجئ النقاش إذا كان الاستمرار فيه يجلب الشقاق والنفور:

إذا تيقنت أن النقاش والحوار سيؤدي الاستمرار فيهما إلىٰ الشقاق والنفور والمجافاة، فاطلب رفع الجلسة، وإرجاء النقاش إلىٰ وقت آخر يكون استعداد

الطرفين فيه لقبول الحق أظهر، وتذكر حديث النبي ﷺ: «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا**»[1].

١٥) الإبقاء على الأخوة مع الخلاف في الرأي في المسائل الخلافية أولى من دفع المخالف إلى الشقاق والعداوة:

إذا علمت من مخالفك أنه لا يبقىٰ أخًا إلا ببقائه علىٰ ما هو عليه من أمر مرجوح ورأي مخالف للحق في نظرك، فتركه علىٰ ما هو عليه أولىٰ من دفعه إلىٰ الشقاق والخلاف؛ لأن بقاء المسلمين إخوة في الدين مع اختلافهم في المسائل الاجتهادية خير من تفرقهم وتمزقهم وبقائهم علىٰ خلافاتهم.

(١) أخرجه أبو داد في سننه (٤٨٠٠)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٣).

ثانيًا: علاقة الداعية بالمسلمين وواجبه نحوهم:

١) علاقة الداعية مع إخوانه الدعاة:

الواجب الأساس في تعامل الداعية مع إخوانه الدعاة هو التكامل والتعاون في المهمات الدعوية؛ والتعاون المقصود هو المساعدة علىٰ الحق ابتغاء الأجر من الله عز وجل؛ وذلك بتسخير الدعاة لطاقاتهم وإمكاناتهم وما آتاهم الله من النعم في خدمة دينه. وهو من مبادئ الإسلام وفضيلة من فضائله التي حث عليها ودعا إليها وأمر بها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]. يقول ابن كثير: (يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين بالمعاونة علىٰ فعل الخيرات؛ وهو البر، وترك المنكرات؛ وهو التقوىٰ)[(١)]. كما أن التعاون يشيع روح الألفة والمحبة بين الدعاة ويجعلهم كالجسد الواحد كما قال ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد؛ إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ**»[(٢)].

والدعوة اليوم بحاجة إلىٰ تعاون أبنائها لمواجهة تيارات الكفر التي تحاول جاهدة ضرب الإسلام عن قوس واحدة كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ [الأنفال: ٧٣]. وفي تعاون الدعاة مع بعضهم البعض وتكاملهم في المهمات بعد عن الخطأ، وسلامة بإذن الله من الانحراف والشطط، وثبات علىٰ الحق، وقد وصف الله المؤمنين في تعاونهم وتكاتفهم فقال: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[العصر: ٣]. ومن الخطأ أن يعتقد الداعية أنه يستطيع أن يقوم بجميع تكاليف الدعوة ومستلزماتها، ويؤدي جميع واجباتها

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ١٢.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

ومسؤوليتها بمعزل عن إخوانه، مستقلاً عنهم ومستغنيًا عن معونتهم، وهو بهذا الاعتقاد قد يكون مغرورًا؛ فحاله حال من يعتقد أنه أقوىٰ من الرسل شكيمة وأكبر منهم عزيمة؛ فقد احتاج نبي الله موسىٰ عليه السلام لأخيه لمؤازرته في دعوته -مع أنه من أولي العزم من الرسل- فقال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: ٢٩ - ٣٢]. فإن لم يكن ثمة غرور فهو جهل بسير الأنبياء التي فاضت الأخبار بتعاونهم مع أتباعهم في حمل لواء الدعوة ونشر بساطها؛ قال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقد قال ﷺ: «**ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره**»[(١)]. وكان ﷺ يقول: «**من ينصرني حتىٰ أبلغ رسالات ربي**»[(٢)]. وأخذ البيعة مرات عديدة علىٰ نصرته ونشر ملته، فبايعه الأنصار رضي الله عنهم.

ولهذا امتن الله علىٰ رسوله بهذه النعمة فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

لذا ينبغي علىٰ الدعاة أن تتسع صدورهم في التعاون فيما بينهم علىٰ دفع مسيرة الدعوة إلىٰ الله، وأن يتقاسموا المهمات والمراحل والأوقات والأماكن والأزمنة، مستشعرين الغاية العظيمة من الدعوة إلىٰ الله: وهي هداية الخلق، مستحضرين الإخلاص لله إزاء هذا التعاون، معتمدين علىٰ الله في تحقيق مرادهم المنشود. كما أن

(١) أخرجه مسلم (٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٦٩٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٣).

الدعوة إلىٰ الله تحتاج لجميع الطاقات والإمكانات والمواهب والمهارات والتخصصات، وهي متفرقة في الدعاة وقليل من يجتمع عنده أكثرها. وعليه فلا بد أن يكون التعاون والتكامل بين الدعاة علىٰ أعلىٰ مستوىٰ من التنسيق والتخطيط والتنظيم، وأن تتحرك الطاقات الدعوية بجميع تخصصاتها لنصرة الإسلام والمسلمين. وليحذر الدعاة من معوقات التعاون بينهم؛ كالأنانية، والأثرة، وحب الذات، والإعجاب بالرأي والاستبداد به، والرغبة في الشهرة؛ فإنها مفسدة للنية، ومذهبة للأجر، وموغرة للصدور، ومفرقة للجمع، ومفسدة للأخوة، ومحبطة للعمل، وماحقة للبركة. ولعل أخطر ذلك كله: الإعجاب بالنفس والاستبداد بالرأي؛ فالمستبد برأيه المعجَب بنفسه شخصية يصعب التعاون معها؛ لأنه يستصغر الآخرين ويحقِّر رأيهم، ويستعظم نفسه، ولا يثق إلا برأيه، وفي ذلك الهلاك.

روىٰ الطبراني في معجمه الأوسط بإسنادٍ حسن عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاث مهلكات وثلاث منجيات، وثلاث كفارات، وثلاث درجات: فأما المهلكات فشحٌّ مطاع، وهوىً متبع، وإعجابُ المرءِ بنفسه...**»[1]. ولإزالة هذا المعوق ينبغي لمن آنس في نفسه عدم الاستماع للآخرين، وكان متشبثًا برأيه، أن يتذكر خير البرية محمدًا ﷺ وكيف كان يسمع لأصحابه ويترك رأيه لرأيهم في ما ليس فيه وحي؛ كما في سماعه لرأي أم سلمة في الحديبية وأَخْذه بمشورتها في حلقه لرأسه ونحره لهديه ﷺ؛ ليقتدي به أصحابه بعد إحجامهم حزنًا علىٰ عدم إتمامهم للعمرة. وكما أخذ برأي شباب الصحابة رضي الله عنهم في الخروج لأحد وعدم مواجهة المشركين داخل المدينة، وكما أخذ برأي السعدين في الأحزاب حين أراد أن يعطي غطفان ثلثَ

(١) المعجم الأوسط: (٥٤٥٢)،.وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٣٩).

ثمار المدينة ويرجعوا، فقال السعدان: لا نعطيهم إلا السيف. وكما أخذ برأي الحُباب بن المنذر في الرواية المشهورة -وإن لم يكن سندها قويًا- حين أشار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بتغيير مكان نزول جيش المسلمين في بدر، وكما أخذ برأي عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال له: يا رسول الله، بأبي أنت، وأمي، أبعثت أبا هريرة بنعليك، من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه بشره بالجنة؟ قال: «**نعم**»، قال: فلا تفعل؛ فإني أخشىٰ أن يتكل الناس عليها، فَخَلِّهِم يعملون، قال رسول الله ﷺ: «**فَخَلِّهِم**»[1].

وقد وعىٰ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الخُلُقَ عن رسول الله ﷺ، فكان مع قوَّته وشدَّته يسمع للرجال والنساء، وربما ترك رأيه لرأيهم؛ كما ورد عن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً قال لعمر: إن فلانا يقول: لو مات أمير المؤمنين لبايعنا فلانًا، (والمعنىٰ أنهم يَثِبُون علىٰ الأمر بغير عهدٍ ولا مشاورة) فقال عمر: لأقومن العشية فأحذر هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغصبوهم، قلت: لا تَفْعَلْ؛ فإن الموسم يجمع رعاع الناس، يَغْلِبون علىٰ مجلسك، فأخاف أن لا ينزلوها علىٰ وجهها، فيطير بها كل مُطِيرٍ، فأمْهِل حتىٰ تقدم المدينة دار الهجرة ودار السنة، فتخلص بأصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، فيحفظوا مقالتك وينزلوها علىٰ وجهها، فقال: والله لأقومن به في أول مقام أقومه بالمدينة[2].

٢) علاقة الداعية بعوام المسلمين:

ينبغي للداعية أن يَفْقَهَ عمومَ دعوته إلىٰ الله، ويحرص علىٰ إيصالها لكل إنسان يستطيع الوصول إليه. ومن الأصناف والشرائح المستهدفة التي ينبغي للداعية أن

(١) أخرجه مسلم (٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٢٣).

يحرص عليها ويسعىٰ في هدايتها ونفعها: عوام الناس والجمهور الأعم، والسواد الأعظم في المجتمع؛ وذلك لأنهم أسرع من غيرهم استجابة إلىٰ الحق؛ فهم أتباع رسل الله؛ يصدقونهم ويؤمنون بهم قبل غيرهم، كما قال هرقل لأبي سفيان يوم اجتمع به في الشام لما سمع هرقل بأنه من مكة، فأراد أن يسأل عن أخبار النبي ﷺ، قال هرقل: أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: هم أتباع الرسل[1].

والواقع أنَّ أتباع رسل الله كانوا من جمهور الناس وعوامهم، ولقد قال الملأ لنوحٍ عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[هود: ٢٧]، وكذا قال الملأ من ثمود قوم صالح عليه السلام كما حكاه الله ﷻ عنهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥]، وكذلك كان أتباع نبينا محمد ﷺ في مكة من الضعفاء، وقد نالهم من المشركين أذىٰ كثير. والجمهور وعوام الناس في كل وقت أسرع من غيرهم إلىٰ قبول الحق، كما قال ابن كثير في تفسيره: (ثم الواقع غالبًا أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس)[2]. وتعليل سرعة استجابة الجمهور وعوام الناس للحق وقبولهم الدعوة إلىٰ الله - كما أشار القرطبي لذلك في تفسيره - أنَّهم خالون من موانع القبول الموجودة في بعض الأصناف والشرائح؛ فثمة موانع واهية تمنعهم من قبول الحق والدعوة؛ كحب الرياسة والتسلُّط، والأنفة من الانقياد للآخرين لكبرهم النفسي[3]. وعليه؛ فينبغي للداعية أن يستثمر مقومات نجاح دعوته المتوافرة في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٩٤٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٦).

(٣) انظر تفسير القرطبي (٩/ ٢٣).

جمهور الناس وعوامهم، وألا ينظر إليهم نظرة دونية؛ فهذا الذي لا يقيم له الداعية وزنًا ربما أصبح له عند الله وزن كبير بخدمته للإسلام والدعوة إليه، وهكذا كان رسول الله ﷺ يدعو كل إنسان يلقاه أو يذهب إليه؛ جاء في السيرة النبوية أنَّ الرسول ﷺ بعد أن عرض نفسه الكريمة علىٰ قبائل العرب التي وافت الموسم في مكة - وكان ذلك قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات - ولم يستجب له منهم أحد، لقي ستة نفر من الخزرج عند العقبة من منىٰ، وهم يحلقون رؤوسهم، فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلىٰ الله، وقرأ عليم القرآن، فاستجابوا لله ولرسوله وآمنوا، ثم رجعوا إلىٰ قومهم بالمدينة، وذكروا لهم رسول الله ﷺ «ودعوهم إلىٰ الإسلام ففشا فيهم، حتىٰ لم يبق دار من دور الأنصار إلاَّ فيها ذكر رسول الله ﷺ»[1]. فرسول الله ﷺ لم يستصغر شأن أولئك الستة وهم يحلقون رؤوسهم بعد أن لم يستجب له أحد من القبائل النازلة حوالي مكة، ولم يقل في نفسه الكريمة: أيُّ أمل في هؤلاء المشغولين بحلق رؤوسهم، ثم إنَّ أولئك الستة كانوا هم الدعاة الأُوَل إلىٰ الإسلام في المدينة، فعلىٰ الداعية أن يقتدي بهدي رسول الله ﷺ، ولا يستهين بأحد فيزهد في دعوته؛ فقد يكون الخير الكثير علىٰ يد الذي لا يَرىٰ فيه خيرًا الآن.

٣) علاقة الداعية بالشباب:

تعد مرحلة الشباب من أدق المراحل في حياة الإنسان، وأطولها مدة، وأشدها تأثيرا؛ فهم يحملون نفوسًا خصبة وثَّابة، صالحة للخير والإصلاح، وقلوبًا صافية لم تقتحمها بعد عادات سيئة، ولا تقاليد ضارة متأصلة في النفوس، ولا ضروب من الأخلاق التي تتراكم عادة لدىٰ الكبار. ومن أجل هذا كانوا أسرع فئات المجتمع إلىٰ

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٨).

قبول النصيحة واستجابة الدعوة، إضافة إلىٰ ما فيهم من نشاط في الأبدان، وحدة في العقول، ورغبة في البذل والتضحية. وكثيرًا ما تتحرك عندهم العواطف، وتهب من ركودها بنشاط وحيوية في حب الخير، فتسعىٰ نفوسهم إليه حثيثة، وتدعو إليه جادة.

ولما كانت مرحلة الشباب هي الطور الحاسم في حياة الإنسان غالبًا، وهي الطور الذي تُبنىٰ فيه العقائد والمثل، ويتحدد الاتجاه، وتتكون فيه النفس الإنسانية؛ فإن التدين في هذه المرحلة ضروري ليضبط اتجاه الشاب ويوجهه الوجهة الإسلامية، ويدفع النفس إلىٰ السلوك النافع المفيد، ويساعد علىٰ نمو نفسي سليم، والتدين يتناول كل جوانب الحياة الإنسانية من: اجتماعية، واقتصادية، وثقافية...الخ، فهو بالتالي يحقق بالنسبة للشباب ارتياحًا نفسيًا واطمئنانًا داخليًا، ويكون علاجًا لما يواجهه الشاب من قلق وصراعات نفسية في هذه المرحلة من الحياة. يؤكد ذلك قوله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه...** »[1].

وخص الشاب في هذا الحديث من بقية المراحل لكونه مظنة غلبة الشهوة؛ لما فيه من قوة الباعث علىٰ متابعة الهوىٰ، فإن ملازمة العبادة مع ذلك أشد وأدل علىٰ غلبة التقوىٰ.

لذا ينبغي للداعية إزاء ذلك أن تكون علاقته بالشباب علاقة مصلحية بنائية، وأن يولي هذه الشريحة عناية خاصة، وأن يسعىٰ في تربيتهم علىٰ القيم الإسلامية، والمبادئ الإيمانية، والتصورات العقلية الصحيحة، وأعظم هذه المهمات: أن يبني فيهم الدين

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

القويم، ويدلهم علىٰ الصراط المستقيم، وأن ينزل إليهم ويعايشهم، ويخالطهم ويسمع همومهم وتطلعاتهم وأمنياتهم، ويشاركهم أعمالهم، ويضبط عواطفهم، ويوجه انفعالاتهم، ويساعدهم علىٰ شغل أوقات الفراغ بالنافع المفيد، كما يجتهد في تهذيب أخلاقهم، وتأديبهم بآداب الإسلام، وكذا يجتهد في اكتشاف طاقاتهم ومواهبهم، وتوجيهها الوجهة الصحيحة السليمة، التي فيها خدمة للإسلام والمسلمين.

٤) علاقة الداعية بالأطفال:

صغار اليوم هم كبار الغد، وجيل المستقبل، والأمل المنشود، والمعول عليهم بإذن الله في تغيير واقع الأمة السيئ إلىٰ واقع طيب مزهر. وهم صنف لا غنىٰ للداعية عن التعامل معهم؛ وذلك لكثرتهم في المجتمع وأهميتهم، فهو ابن للداعية، أو أخ له، أو قريب من أسرته أو عشيرته أو جيرانه، أو من أبناء المسلمين عمومًا.

ومما ينبغي للداعية مراعاته في التعامل مع الصغار:

أ- الرحمة والرأفة بهم:

فقد كان النبي ﷺ رحيمًا رؤوفًا بالصغار، ومن مظاهر رحمته بهم أنه كان يقبل الصبيان ويداعبهم ويلاطفهم، وينبذ القاسي الذي لا يرق قلبه للأطفال؛ قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَبَّلَ رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَم**»[1]. وكان ﷺ يمسح علىٰ رؤوس الأطفال من باب الرحمة والمداعبة لهم؛ فعن جابر بن سمرة، قال: «صليت مع رسول الله ﷺ صلاة

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

الأولىٰ، ثم خرج إلىٰ أهله وخرجت معه، فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خدي أحدهم واحدًا واحدًا، قال: وأما أنا فمسح خدي، قال: فوجدت ليده بردًا أو ريحًا كأنما أخرجها من جؤنة عطار»[(١)].

ومن مظاهر الرحمة بالطفل: الخوف عليه ومساعدته؛ ذلك أنه جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر، فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: «**صدق الله**: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [التغابن: ١٥]، **نظرت إلىٰ هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتىٰ قطعت حديثي ورفعتهما**»[(٢)].

ومن علامات رحمة النبي ﷺ بالأطفال أنه كان يخفف الصلاة من أجلهم؛ قال ﷺ: «**إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز فِي صلاتي كراهية أن أشق علىٰ أمه**»[(٣)]، فالنبي ﷺ يخاف علىٰ الطفل أن يكون أصابه أذىٰ، ويخاف علىٰ أمه أن يذهب خشوعها بالتفكير في ولدها.

ب- تعليمهم الإيمان والتوحيد والقرآن:

عن جندب بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حَزاوِرَة[(٤)]، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا به إيمانًا[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٢٩). وجؤنة العطار: هو الوعاء الذي يوضع فيه العطر ويُحرز. انظر: النهاية لابن الأثير (١/ ٣١٨)، ولسان العرب (١٣/ ١٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٩٩٥)، والترمذي: ٣٧٧٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٥٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٠٧).

(٤) حَزَوِراة: جمع حَزَوَّر، وهو الغلام الذي اشتد وقوي. لسان العرب (٤/ ١٨٧).

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه (٦١)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٥٢).

ومن أوكد صور تعليم الأطفال: ما يرتبط بترسيخ العقيدة لديهم؛ ومن ذلك ما قاله عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا، فقال: «**يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»(١).

وإدراكًا من جيل الصحابة -رضوان الله عليهم- لأهمية توجيه الطفل للتعلم من الصغر قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فقد أوتىٰ الحكم صبيا»(٢). وفي وصية للحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لبنيه وبني أخيه: «تعلموا تعلموا؛ فإنكم صغار قوم اليوم تكونون كبارهم غدًا، فمن لم يحفظ منكم فليكتب»(٣).

ج- تربيتهم علىٰ حسن السلوك:

إذا كانت السلوكيات تتكون عند الطفل الصغير بالتدرج والاختلاط بالآخرين، فإنه من الضروري انتهاز مختلف المواقف والأحداث لتوجيهه توجيهًا مباشرًا وغير مباشر ليكتسب هذا الطفل الآداب والسلوكيات المحمودة، وخاصة تلك التي تتكرر مع الطفل في حياته اليومية.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، والترمذي (٢٥١٦). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٣٨٢)، وصحيح الجامع (٧٩٥٧).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (١٧٩٨).

(٣) الكفاية في علم الرواية ص٢٢٩.

فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا بني إذا دخلت علىٰ أهلك فسلم؛ يكن بركة عليك، وعلىٰ أهل بيتك**»(١).

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أخذ الحسن بن علي تمرة من تمر الصدقة، فجعلها في فيه، فقال رسول الله ﷺ: «**كِخْ كِخْ، ارمِ بها، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة؟**»(٢). ومن ذلك أيضًا ما قاله الصحابي الجليل عمر بن أبي سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنت غلامًا في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا غلام! سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك**» فما زالت تلك طعمتي بعد(٣).

فالنبي ﷺ يعلم الطفل لنفسه أولاً، ثم إذا خالط الناس لا يخرج عن عاداتهم وتقاليدهم المعتبرة ثانيًا، وتوجيه النبي ﷺ كان بأسلوب نبوي لم يكن فيه زجر أو غلظة في الكلام، بل كان بأسلوب محبب وسلس؛ يراعي عُمْر هذا الغلام الصغير، وهذا التوجيه ليس لهذا الصحابي الكريم وحده بل لكل الناس بعده.

د- تقديرهم واحترام حقوقهم:

وهذه من أهم الأمور التي يحتاج إليها الطفل دائما، فقد كان النبي ﷺ يشعر الناشئة بمكانتهم وتقدير ذاتهم، وأنهم في كثير من الأمور كغيرهم من الكبار، لهم حقوق مكفولة لا يسقطها ضعفهم ولا قلة المبالاة بهم. عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ أُتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام، وعن يساره أشياخ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٩٨)، وقال: حسن غريب. وحسّنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب (١٦٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩١)، ومسلم (١٠٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٦٧)، ومسلم (٢٠٢٢).

فقال للغلام: «**أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟**». فقال الغلام: لا والله، لا أوثر بنصيبي منك أحدًا. قال: فتلّه رسول الله ﷺ في يده[(١)].

كذلك كان من تقدير النبي ﷺ للأطفال تكنيتهم بأحب الكنىٰ والألقاب؛ فعن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير، قال: أحسبه، قال: كان فطيمًا، قال: فكان إذا جاء رسول الله ﷺ فرآه، قال: «**أبا عمير ما فعل النغير**» قال: فكان يلعب به[(٢)].

ومن مظاهر التقدير للأطفال: الرفع من شأنهم بإلقاء السلام عليهم؛ فعن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ مر علىٰ غلمان فسلَّم عليهم[(٣)].

إن احترام الداعية لشخصية الطفل يبعث فيه الاعتماد علىٰ النفس والشعور بالراحة، وينمي مواهبه، في حين أن التعامل معه بالاستخفاف، والتقليل من مكانته، يؤدي به إلىٰ العقد النفسية والاضطراب والدونية.

٥) علاقة الداعية بالنساء:

خير الهدي هدي محمد ﷺ، وخير من تعامل مع النساء التعامل الأمثل الذي يحفظ لهن مكانتهن وكرامتهن هو القدوة المعصوم رسولنا ﷺ، فكان تعامله معهن يتسم بالرفق والحنو والرحمة؛ وذلك لما طبعه الله عليه من كريم الأخلاق والرحمة بالناس والرفق بهم -لا سيما النساء- ولما يعلمه ﷺ من ضعف النساء وقلة حيلتهن. ولذا حري بالداعية أن يتعلم كيف عاملهن ﷺ فيحذو حذوه، ويقتفي أثره؛ حتىٰ

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥١)، ومسلم (٢٠٣٠).
(٢) أخرجه البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠).
(٣) أخرجه البخاري (٦٢٤٧)، ومسلم (٢١٦٨).

يكون علىٰ بصيرة من أمره، قائمًا بحق الله في هذه الفئة. ولعلنا نشير إلىٰ بعض هديه في التعامل مع النساء، فمن ذلك:

أ- كان ﷺ يعد النساء نظائر الرجال:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إنما النساء شقائق الرجال**»[(١)]. أي: نظائرهم وأمثالهم في الأخلاق والطباع؛ كأنهن شققن منهم. فهن أشباه للرجال ومساويات لهم فيما فرض الله، إلا ما استثناه الوحي بتخفيف؛ كإسقاط الجمعة والجهاد، أو بزيادة؛ كالحجاب.

ب- كان ﷺ يتعامل مع النساء برفق:

فيتعامل معهن باللين والرحمة والمحبة والعطف والرفق؛ لما في المرأة من ضعف ورقة، ولذلك كان يطلق عليهن: (القوارير)؛ فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وغلام أسود يقال له أنجشة يحدو، وكان حسن الصوت. فقال له رسول الله ﷺ: «**يا أنجشة، رويدك سوقًا بالقوارير**» قال أبو قلابة: فتكلم النبي ﷺ بكلمة لو تكلم بها بعضكم لعبتموها عليه[(٢)]. وفي لفظ لأحمد[(٣)]: «**يا أنجشة ويحك: ارفق بالقوارير**»، يعني: النساء. فشبه النبي ﷺ النساء بالقوارير، والقوارير جمع قارورة، وهي الزجاجة؛ سميت بذلك لاستقرار الشراب فيها. والنساء يشبهن بالقوارير في الرقة، واللطافة وضعف البنية.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦١٩٥)، وأبو داود (٢٣٦). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٤٩، ٦٢١١)، ومسلم (٢٣٢٣).

(٣) المسند (١٢٣٥٠).

ج- كان يحثهن علىٰ الإكثار من ذكر الله تعالىٰ:

عن يسيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -وهي من المهاجرات- قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «**عليكن بالتسبيح، والتهليل، والتقديس واعقدن بالأنامل، فإنهن مسؤولات مستنطقات، ولا تغفلن، فتنسين الرحمة**»(١).

د- كان يحثهن علىٰ شهود مواسم الخير في الأعياد ونحوها:

عن أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أُمرنا أن نخرج الحُيَّض يوم العيدين، والعواتق وذوات الخدور، فيشهدن الخير وجماعة المسلمين ودعوتهم، ويعتزل الحُيَّض عن مصلاهن. قالت امرأة: يا رسول الله إحدانا ليس لها جلباب. قال: «**لتلبسها صاحبتها من جلبابها**»(٢). أي: تعيرها من ثيابها ما لا تحتاج إليه.

هـ- كان يهتم بالنساء، وكان يخصص لهن يومًا لتعليمهن ووعظهن:

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاءت امرأة إلىٰ رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يومًا نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله. فقال: «**اجتمعن في يوم كذا وكذا، في مكان كذا وكذا**»، فاجتمعن، فأتاهن رسول الله ﷺ، فعلمهن مما علمه الله، ووعظهن وأمرهن. فكان فيما قال لهن: «**ما منكن امرأة تقدم بين يديها من ولدها ثلاثة، لم يبلغوا الحنث، إلا كان لها حجابا من النار**». فقالت امرأة منهن: يا رسول الله، أو اثنين؟، فأعادتها مرتين. ثم قال: «**واثنين واثنين، واثنين**»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٨٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٠٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤)، ومسلم (٨٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٠١)، ومسلم (٢٦٣٤).

و- كان يرفق بالأرامل منهن:

فقد أولاهن ﷺ رحمته ورفقه، وكان لا يتكبر علىٰ الأرملة ولا يأنف منها؛ عن عبدالله بن أبي أوفىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويقل اللغو ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجه[1].

ز- كان ﷺ يسارع في قضاء حوائجهن:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاءت امرأة إلىٰ رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة. فقال لها: «**يا أم فلان، انظري أي السكك شئت حتىٰ أقضي لك حاجتك**». فخلا معها في بعض الطرق حتىٰ فرغت من حاجتها[2]. وهذا من تواضع النبي ﷺ، ولطفه بالمرأة التي تحتاج المساعدة والرعاية منه والرفق.

٦) علاقة الداعية بالعصاة:

العصاة: هم صنف من أصناف المدعوين ويعنىٰ بهم: مَنْ كان عندهم أصل الإيمان -وهو الإقرار بشهادة أن لا إله إلاَّ الله وأن محمدًا رسول الله- ولكنَّهم لا يقومون بحقوق هذه الشهادة؛ فهم يخالفون بعض أوامر الشرع، ويرتكبون بعض نواهيه، ومنهم المكثِر من المعاصي، ومنهم المقِلّ، ومنهم بين ذلك علىٰ درجات كثيرة جدًّا ومتنوعة جدًّا، لا يحصيها إلاَّ الله تعالىٰ. ومما لا بد أن يدركه الداعية أن هذا الصنف هو السواد الأعظم في المسلمين؛ وذلك لأن المسلم غير معصوم من

(١) أخرجه النسائي في سننه (١٤١٤). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٠٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٢٦).

المعصية، كما قال ﷺ: «**كل ابن آدم خطَّاء وخير الخطائين التوابون**»[1]. وتعليل ذلك أنَّ نفس الإنسان قابلة لارتكاب المعصية كما هي قابلة لفعل الطاعة؛ قال اتعالىٰ: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧ – ١٠].

ومن أسباب انكباب المسلم علىٰ المعاصي: جهله؛ فالعاصي جاهل قطعًا، فلولا جهله ما عصىٰ الله تعالىٰ؛ قال ربنا جلَّ جلاله: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧]. قال مجاهد وغير واحد من أهل العلم: كل من عصىٰ الله خطأً أو عمدًا فهو جاهل حتىٰ ينزع من الذنب[2]. ووجه جهل العاصي أنَّه يجهل قدر ربه، وما يجب له من طاعة لحق ربوبيته وألوهيته وعظمته وكمال إنعامه علىٰ عبده، ومن جهل العاصي: جهله بضرر الذنوب، وكان ينبغي أن ينفر منها أشد من نفرته من الحيَّات والعقارب، ومن جهله: أن يؤثر العاجلة علىٰ الآخرة، وما نسبة العاجلة وما فيها من لذائذ إلىٰ نعيم الآخرة إلاَّ كنسبة ما يعلق بالأصبع إذا غمستها في البحر إلىٰ مائه، ومن جهله: التسويف وطول الأمل وتأجيل التوبة، ولم يعلم أن الموت أقرب إلىٰ الإنسان من شراك نعله.

وإذا أدرك الداعية حال العاصي وأسباب انحرافه عن الجادة قاده ذلك إلىٰ الموقف الصحيح في التعامل معه؛ وهو: أن ينظر إلىٰ العصاة نظرة إشفاق ورحمة؛ فهو يراهم كالواقفين علىٰ حافَّة وادٍ عميق سحيق في ليلة ظلماء، يخاف عليهم من

(١) أخرجه أحمد (١٣٠٤٩)، والترمذي (٢٤٩٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٥١٢).
(٢) تفسير الطبري ٨/ ٨٩.

السقوط، ويعمل جهده لتخليصهم من الهلاك. وهو في سبيل هذه الغاية يعفو عن تجاوزهم في حقه إن كانت معصيتهم في حقه، ولا يعيرهم ولا يشمت بهم، ولا يحتقرهم افتخارًا بنفسه عليهم وإدلالاً بطاعته، ولا يغضب إلا إذا انتهكت محارم الله، ويوجه غضبه لهذا الانتهاك، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما انتَقَمَ رسولُ اللهِ ﷺ لنفسِه في شيءٍ يُؤْتَىٰ إليه حتىٰ تُنْتَهَكُ مِن حرماتِ اللهِ، فيَنْتَقِمُ للهِ[1]. ومن محارم الله التي يغضب لها المسلم: محاربة العصاة الدعوة إلىٰ الله والصدِّ عن سبيله وإلحاق الأذىٰ بالدعاة حتىٰ يمتنعوا عن القيام بواجب الدعوة، ففي هذه الأحوال ونحوها يجوز للداعي أن يسلك مع هؤلاء العصاة ما يكفّ به ضررهم عن الدعوة والدعاة بالقدر الذي يبيحه الشرع، علىٰ أن لا يتجاوز هذا القدر، وأن يتوسَّل بالأسهل فالأسهل من وسائل كفِّ ضررهم، مع رغبته التامّة في هدايتهم وصلاحهم.

٧) علاقة الداعية بالمبتدعة:

المبتدعة أصناف متفاوتون، ومنهم من يريد الحق ويقصد التقرب إلىٰ الله لكنه ضل الطريق؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧]. لذا ينبغي للداعية أن يراعي هذا التفاوت في أصناف المبتدعة، ويدرك أن منهم من قد يظهر من التنسك أو الأحوال ما يُعبِّر عن اعتقاده الحق فيما يؤمن به. والمبتدع -ما لم يكن زنديقًا- يحكم له بالإسلام ويبقىٰ شأنه وحاله أفضل بكثير ممن قصد الكفر البواح أو الشرك الظاهر. كما ينبغي أن يعلم الداعية أن المبتدع

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٨٥٣).

أخطر شأنا علىٰ الدِّين وأهل الإسلام من الكافر والمشرك؛ لأن البدعة تفسد الإسلام وتحرف الناس عن الحق إلىٰ مزالق لتأويله؛ ما يقسمهم شيعًا وأحزابًا. وقد أشار الرسول ﷺ في حديثه عن افتراق اليهود والنصارىٰ وهذه الأمة إلىٰ مدىٰ تأثير الاختلاف في الدين علىٰ وقوع كثير من الفِرق في النار.

ومن هنا يأتي الإسلام ليرسم للداعية أحكام التعامل مع المبتدع من هذه الزاوية، فالمقصود من التعامل مع المبتدع أمران:

الأول: معالجة **المبتدع** وإخضاعه للتدابير التي من شأنها تحقيق العلاج لأهدافه.

الثاني: صيانة **المجتمع** من الآثار التي قد تلحق به دينيًا من البدعة ذاتها، فضلا عن المبتدع. وكما هي حالات المرض: يتفاوت تقويم الإسلام للبدعة وصاحبها، ومن ثمَّ يختلف تعامل المجتمع الإسلامي مع المبتدع بحسب البدعة ذاتها، وبحسب تأثير المبتدع من جهة أخرىٰ.

وعليه؛ فينبغي للداعية أن يعلم أحكام التعامل مع المبتدع وكيف تصاغ علاقته به، ومن ذلك:

١- بيان مخالفته للدِّين بالحجة والبرهان والدليل، وهذا ما سلكه الرسول ﷺ مع ذلك الشاب الذي أتىٰ يستأذن الرسول ﷺ في الزنا!![1]، ومع ذلك الشخص الذي توجه إلىٰ الرسول ﷺ بقوله: اعدل يا محمد![2].

٢- نصح المبتدع وإظهار الشفقة به، مع بيان عظم ما وقع فيه وعظم الآثار التي ستترتب علىٰ بدعته؛ وهذا بالفعل ما قام به عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو يحاور

(١) تقدم تخريجه (ص١٥٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص ١٤٦).

الخوارج ويلزمهم بلازم مذهبهم الذي ذهبوا إليه في شأن الفريقين المتقاتلين من الصحابة.

٣-الوقوف بصرامة إزاء تَحوُّل هذه البدعة إلىٰ مذهب يتلقفه الناس ويتخذونه منهجًا؛ لذا كان منهج الرسول ﷺ حازمًا وصارمًا مع من أظهروا الغلو أو أحوالاً وأقوالاً بعيدة عن سنته، وتوعَّد من اتخذ هذا المسلك، وحذَّر أمته منه؛ لكي يظل الحق الذي أنزله الله ناصعًا نقيًّا مما قد يشوبه من أهواء الناس؛ التي وإن لبَّت رغبة قوم أو ذائقتهم، أو وافقت آراءهم العقلية، إلا أنها لن توافق قومًا آخرين. أما الحق الذي أنزله الله تعالىٰ فيوافق العقول السليمة جميعًا، وذائقة النفوس البشرية كافة، ويدور في حدود طاقاتهم وقدراتهم دون تكلف وتنطع. فكم شوهت البدع -رغم نظر أصحابها إليها بالحسن- الإسلام في نظر غير المسلمين، فصرفتهم إلىٰ باطل، وزهَّدتهم في الحق!

وفي جميع الأحوال السابقة يبقىٰ للمرء حقوق الإسلام وعليه واجباته. وقد احتمل الرسول ﷺ المخالفين وأبقاهم في المجتمع لكن مع إنكاره عليهم وتحذيره مما صنعوا؛ فقد كان الرسول الكريم يعلم أن للشيطان مداخله علىٰ بعض الصالحين من جهة: تشددهم، أو فهمهم الخاطئ للدين، أو تعبُّدِهم لله بما يستحسنونه من حال أو هيئة؛ فإذا لم يُحسن إلىٰ هؤلاء تحوَّلوا إلىٰ أعداء؛ كيف وقد صبر علىٰ أعدائه من المشركين وأهل الكتاب ومنافقي المدينة! إلا أن هنا ملحظًا مهمًا: وهو أن من طبيعة المجتمعات أن تتعامل في الجانب المادي من حياتها عند وجود الضرر والأذىٰ من قبل شخص مريض أو مختل بأن يباشروا من التدابير ما يعينهم علىٰ إزالة الضرر ورفع الأذىٰ، أو -في أقل الأحوال- حصره، مع مراعاة ألاَّ يخل بحق المريض أو

المختل في الرعاية، مع إمكانية تقييد بعض حرياته أو إسقاط بعض حقوقه لمصلحة أكبر؛ هذه الصورة المادية تقابلها صورة معنوية في حال كان الشخص مجرمًا أو صاحب خلق سيء؛ حيث يأتي عوضًا عن الحجر الصحي والعلاج المادي حَجْرٌ من نوع آخر وعلاجٌ من نوع آخر؛ وهذه السُّنة الاجتماعية لا يغفلها الإسلام في المبتدع، باعتباره شخصًا (مختلاً) في جانب (الدِّين). ومن ثَمَّ، فكما أن للجوانب الأخرىٰ تدابيرها لصيانتها في حياة المجتمع يكون الدِّين أحق بهذه التدابير.

٨) علاقة الداعية بالمنحرفين فكريًا:

الانحراف الفكري: هو الميل إلىٰ غير الحق في أصول الدين فيما ينتجه عقل الإنسان من رأي. ويعد الانحراف الفكري من أخطر الانحرافات التي تقع في المجتمع المسلم؛ وذلك لما يترتب عليه في حياة الفرد والمجتمع من آثار ضارة وفساد عريض للعباد والبلاد. فقد يمرق المسلم بسببه من الدين، ويقع في كبائر من الذنوب تخرجه من الملة، ويخسر الدنيا والآخرة؛ وهو يحسب أنه يحسن صنعًا؛ خاصة أن هذا الانحراف الفكري يغزو الأفراد في أعز مراحل حياتهم: مرحلة الشباب، ويستهدف الأمة في أغلىٰ مدخراتها، والإنسان إذا خسر شبابه خسر عمره، والأمة التي يتحول شبابها للهدم لا للبناء تفقد مقومات النمو والتطور لحاضرها، وعوامل بقائها في مستقبلها؛ فهو يجعل الشباب عرضة لأفكار هادمة لمسيرة تقدم الأمة، فينتشر التشكيك في الله أو في أحكامه وشرائعه، ويظهر الإلحاد والتشبه بالكفار واتباع مذاهبهم الفكرية، ويضعف التدين والالتزام الخلقي، وينتشر في المقابل: التكفير، والتفجير، وتدمير المنشآت، وسفك الدماء المعصومة، والتعدي علىٰ الأموال والأعراض، والخروج علىٰ الجماعة والحاكم، وتفريق الكلمة، وزعزعة

الأمن، وتبديد جهود الأمة وإمكاناتها وقدراتها، وتشويه صورة الإسلام والمسلمين، وفتح الباب لعدوها المتربص بها علىٰ ضعفها، كل ذلك بسبب الانحراف الفكري عن الطريق المستقيم، والمؤسف حقًّا أن يكون بعضه بدعوىٰ الحق والجهاد في سبيل الله. لذا ينبغي علىٰ الداعية أن يسلك المسلك الصحيح في التعامل مع هؤلاء المنحرفين ؛ وذلك بمجابهتهم فكريًا، فتكون مناقشتهم، ومحاورتهم بالتي هي أحسن، وإزالة شبههم وتحصينهم بالعلم النافع الصحيح، ومن ذلك:

١) إبراز لزوم الكتاب والسنة مصدرين للتشريع يُفهمان بفهم سلف الأمة من الصحابة والتابعين.

٢) نشر الفقه السليم والتصور الصحيح للإسلام ورسالته السمحة، وإبراز مقاصده.

٣) دعوتهم للموازنة بين الحقوق والواجبات.

٤) توعيتهم بحرمة المسلم: دمه وعرضه وماله، وحرمة جماعة المسلمين.

٥) توعيتهم بحقوق غير المسلمين، والواجب تجاههم، وفقه التعامل معهم.

٦) تعليمهم فقه الأولويات، ومآلات الأمور، ومنزلة ذلك في التشريع الإسلامي.

ثالثًا: علاقة الداعية بغير المسلمين وواجبه تجاههم:

١) علاقة الداعية بالملحدين:

الإلحاد في الأصل هو: الميل والعدول عن الشيء، والظلم والجور، والجدال والمراء؛ يقال: لحد في الدين لحدًا، وألحد إلحادًا: لمن مال وعدل ومارىٰ وجادل وظلم. واللحد: الشق الذي يعمل في جانب القبر لموضع الميت؛ لأنه قد أُميل عن وسط القبر إلىٰ جانبه. والإلحاد في الدين هو: الميل عن الحق، والانحراف عنه بشتىٰ الاعتقادات، والتأويل الفاسد، والمنحرف عن صراط الله. وقيل المراد بالملحدين علىٰ المعنىٰ المصطلح عليه في هذا العصر هم: من أنكروا وجود رب خالق لهذا الكون، متصرف فيه، يدبر أمره بعلمه وحكمته، ويجري أحداثه بإرادته وقدرته، واعتبار الكون أو مادته الأولىٰ أزلية، واعتبار تغيراته قد تمت بالمصادفة، أو بمقتضىٰ طبيعة المادة وقوانينها، واعتبار الحياة من أثر التطور الذاتي للمادة. وعليه فينبغي للداعية أن يسلك المسلك الصحيح في دعوة الملحدين؛ وذلك من خلال محاجتهم بما يلي:

أ- الأدلة الفطرية:

فمن الحكمة مع الملحدين أن يستخدم الداعية إلىٰ الله تعالىٰ في دعوته لهم الأدلة الفطرية؛ فيوضح ويبين لهم أن المولود يولد علىٰ نوع من الجبلة والطبع المتهيِّئ لقبول الدين، فلو تُرِكَ عليها لاستمر علىٰ لزومها ولم يفارقها إلىٰ غَيرها، وإنما يعدل عنها من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد. وكل مولود يولد علىٰ معرفة الله والإقرار به، فلا تجد أحدًا إلا وهو يقرّ بأن له صانعًا وإن سماه بغير اسمه، أو عبد معه غيره.

والمقصود بفطرة الله التي فطر الناس عليها: فطرة الإسلام، والسلامة من الاعتقادات الباطلة، والقبول للعقائد الصحيحة؛ فإن حقيقة الإسلام هي الاستسلام لله وحده. قال الرسول ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جَدْعَاء**»، ثم يقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[الروم: ٣٠][(١)].

وقال الله تعالىٰ في الحديث القدسي: «**إني خلقتُ عبادي كلهم حُنفاء، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يُشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا**»[(٢)].

ب- البراهين والأدلة العقلية:

فمن الحكمة في دعوة هؤلاء إلىٰ الله تعالىٰ أن تُقدّم لهم البراهين والأدلة العقلية القطعية في التقسيم العقلي الحكيم؛ فيستدل علىٰ كل من أنكر وجود الله تعالىٰ وربوبيته بأمر لا يمكنهم إلا التسليم للحق والانقياد له، أو الخروج عن موجب العقل إلىٰ الجنون والفطر المنحرفة، فيقال لكل من أنكر ذلك: إن الأمور الممكن تقسيمها في العقل ثلاثة لا رابع لها:

١ - إما أن تُوجد هذه المخلوقات بنفسها صُدفة من غير مُحدِث ولا خالق خلقَهَا، فهذا مُحالٌ ممتنع تجزم العقول ببطلانه ضرورة، ويُعلم يقينًا أن من ظن ذلك لهو إلىٰ الجنون أقرب منه إلىٰ العقل؛ لأن كل من له عقل يعرف أنه لا يمكن أن يوجد شيء من غير مُوجدٍ ولا مُحدِثٍ، فلا بد لكل حادث من مُحدِث، ولا سبيل

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

إلىٰ إنكار ذلك؛ فإن وجود الشيء من غير مُوجد مُحالٌ وباطلٌ بالمشاهدة والحسّ والفطرة السليمة.

٢ - وإما أن تكون هذه المخلوقات الباهرة هي المحدثة الخالقة لنفسها، فهذا أيضًا مُحالٌ ممتنع بضرورة العقل، وكل عاقل يجزم أن الشيء لا يُحدثُ نفسه ولا يخلقه؛ لأنه قبل وجوده معدوم فكيف يكون خالقًا؟!

فإذا بطلَ هذان القسمان عقلاً وفطرةً، وبان استحالتهما، تعيَّن القسم الثالث:

٣ - وهو أن هذه المخلوقات بأجمعها: علويها وسفليّها لا بد لها من مُحدث ينتهي إليه الخلق والملك والتدبير، وهو الله العظيم، خالق كل شيء، المتصرف في كل شيء، المدبر للأمور كلها؛ ولهذا ذكر الله تعالىٰ هذا الدليل العقلي والبرهان القطعي فقال: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[الطور: ٣٥]، ولذلك تأثر جبير بن مطعم بسماعها من النبي ﷺ تأثرًا عظيمًا؛ قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٧]، كاد قلبي أن يطير، وذلك أول ما وقرَ الإيمانُ في قلبي»(١).

فالمخلوق لا بد له من خالق، والمصنوع لا بد له من صانع، والمفعول لا بد له من فاعل، وهذه قضايا بدهية جلية واضحة، يشترك في العلم بها جميع العُقلاء، وهي أعظم القضايا العقلية، فمن ارتاب فيها أو شكّ في دلالتها فقد برهن علىٰ ضلاله، واختلال عقله.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٢٣، ٤٨٥٤).

٢) علاقة الداعية بأهل الكتاب:

إن من الحكمة في دعوة أهل الكتاب إلىٰ الله تعالىٰ أن يُجَادَلُوا بالتي هي أحسن، بمزيد حسن خلق ولُطْفٍ ولين كلام، ودعوة إلىٰ الحق، وتحسينه بالأدلة العقلية والنقلية، ورد الباطل بأقرب طريق وأنسب عبارة، وأن لا يكون القصد من ذلك مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو، بل لا بد أن يكون القصد بيان الحق، وهداية الخلق؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقد ختم الله تعالىٰ الشرائع كلها بشريعة محمد ﷺ، فأرسله الله إلىٰ جميع الثقلين: الإنس والجن، ونسخت شريعته جميع الشرائع السابقة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقال ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي أو نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[(١)]. والله تعالىٰ حكيم عليم ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ولا غرابة في أن يُرفَع شرعٌ بآخر مراعاة لمصلحة العباد عن علمٍ سابقٍ من علاَّم الغيوب تبارك وتعالىٰ، ولكن اليهود والنصارىٰ أنكروا نسخ الشريعة الإسلامية لجميع الشرائع السابقة، فينبغي عند دعوتهم إلىٰ الله ﷻ أن يكون المسلك الأساس في ذلك: الاستدلال بالأدلة العقلية، والأدلة النقلية علىٰ نسخ الإسلام لجميع الشرائع، وفيما يلي بيان ذلك:

(١) أخرجه مسلم (١٥٣).

أولاً: الأدلة العقلية:

١-ليس هنالك محظور في النسخ عقلاً، وكل ما لم يترتب عليه محظور كان جائزًا عقلاً، فالنسخ جائز عقلاً.

٢-الله تعالىٰ يأمر بالشيء علىٰ قدر ما تقتضيه المصلحة؛ فقد يأمر بالشيء في وقت، وينهىٰ عنه في وقت آخر؛ لأنه سبحانه أعلم بمصالح عباده، والطبيب الحكيم يأمر المريض بشرب الدواء، أو استعمال دواء خاص في بعض الأزمنة، وينهاه عنه في زمن آخر، بسبب اختلاف مصلحته عند اختلاف مزاجه، والملك الذي يُشفق علىٰ رعيته ينقلهم في بعض الأزمنة إلىٰ نوع من السياسة غير النوع الأول؛ لما في ذلك من المصالح، وقد يسوس الوالد الحكيم ولده في وقت باللطف، وفي وقت آخر بالتأديب، علىٰ قدر ما يرىٰ في ذلك من المصلحة، والله ﷻ: ﴿لَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وهو سبحانه لا يفعل شيئًا إلا لحكمة بالغة؛ فهو يُحيي ثم يُميت ثم يُحيي، وينقل الدولة من قوم أعزّة إلىٰ قوم أذلّة، ومن قوم أذلة إلىٰ قوم أعزة، ويُعطي من شاء ما شاء، ويمنع من شاء: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

٣-من يقول بوقوع النسخ سمعًا وجوازه عقلاً، وأن الشارع يجوز أن يأمر عباده بأمر مؤقت ينتهي بانتهاء وقته، وأن ذلك قد وقع سمعًا؛ من يقول بذلك يلزمه أن يُجَوِّز نسخ الشريعة الإسلامية للملل السابقة.

٤-إنكار النسخ يلزم منه إنكار كل الرسالات التي جاءت بعد الرسالة الأولىٰ! فتبطل بذلك اليهودية والنصرانية وغيرهما.

ثانيًا: الأدلة النقلية السمعية: وهي نوعان:

النوع الأول: ما تقوم به الحجة علىٰ منكري النسخ من اليهود والنصارىٰ الذين لم يعترفوا برسالة محمد ﷺ؛ وذلك بالأدلة الواردة في التوراة والإنجيل. والداعية المسلم إذ يُورد الأدلة من كتبهم لا يعتقد أن هذه النصوص كما أُنزلت، بل يحتمل أن تكون مما وقع عليه التحريف والتغيير؛ فإن اليهود والنصارىٰ قد غيَّروا وبدَّلوا كثيرًا من كتبهم، ولكن المسلم يقيم الحجة عليهم بما بين أيديهم من التوراة والإنجيل لا لثبوتها ولكن لإلزامهم بالتسليم، أو يعترفوا بالتحريف، ومن ذلك ما يأتي:

١ – جاء في التوراة: إن الله تعالىٰ أمر آدم أن يزوج بناته من بنيه، وورد أنه كان يولد له في كل بطن من البطون ذكر وأنثىٰ، فكان يزوج توأمة هذا للآخر، ويزوج توأمة الآخر لهذا، إقامة لاختلاف البطون مقام اختلاف الآباء والأمهات والأنساب، ثم حرَّم الله ذلك بإجماع المتدينين من المسلمين واليهود والنصارىٰ.

٢ – أمر الله إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، ثم نسخ هذا الحكم قبل العمل به، وقد أقرّ منكرو النسخ بذلك.

٣ – الجمع بين الأختين كان مباحًا في شريعة يعقوب، ثم حُرِّم في شريعة موسىٰ عليهما السلام.

النوع الثاني: ما تقوم الحجة به علىٰ من آمن بنبوة محمد ﷺ واعترف بها؛ ولكنه جعلها خاصة بالعرب دون غيرهم، فهؤلاء متىٰ سلّموا واعترفوا برسالته ﷺ وأنه صادقٌ فيما بلغه عن الله ﷻ من الكتاب والسنة وجب عليهم الإيمان والتصديق بكل ما ثبت عنه، وما جاء به من عموم الرسالة، والنسخ الثابت بالكتاب والسنة، ومن هذا النوع ما يأتي:

١ – قال تعالىٰ: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٠٦ – ١٠٧].

٢– وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١٠١].

٣– وقال جل وعلا: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٣٨ – ٣٩].

٤ – وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

٥– وقال الله جل وعلا: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

٦ – وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦].

وبهذه الأدلة العقلية، والنقلية السمعية –التي دلت علىٰ جواز النسخ عقلاً ووقوعه نقلاً وسمعًا– سقطت أقوال منكري النسخ، وأقوال من أنكر عموم رسالة النبي ﷺ.

وثمة مسالك أخرىٰ يجدر بالداعية أن يدركها ويحيط بها، وهي مما تقوي حجته إزاء دعوة أهل الكتاب؛ منها:

– الأدلة القطعية علىٰ وقوع التحريف والتبديل في التوراة والإنجيل.

- إثبات اعتراف المنصفين من علماء اليهود والنصارىٰ.
- الأدلة علىٰ إثبات رسالة عيسىٰ ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

٣) **علاقة الداعية بالمشركين:**

أطلق القرآن الكريم لفظ المشركين علىٰ عُبَّاد الأوثان والأصنام، وقد أصبح هذا اللفظ علمًا عليهم يميزهم عن بقية الأديان الأخرىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الحج: ١٧]. وقال تعالىٰ: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال الله تعالىٰ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢].

ففي هذه الآيات، قد ميز القرآن أهل الكتاب -علىٰ ما فيهم من ضلال وباطل- عن عبدة الأوثان والأصنام. قال صاحب المغني: (وسائر آي القرآن الكريم يفصل بينهما، فدل علىٰ أن لفظ المشركين بإطلاقها غير متناولة لأهل الكتاب)[١]. وقال القرطبي في هذا الخصوص: (ففرق بينهم في اللفظ، وظاهر العطف يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه)[٢].

ووصف القرآن الكريم لعبدة الأوثان والأصنام بالمشركين فيه تسفيه لعقولهم، وأن عبادتهم تلك باطلة وفاسدة؛ لأنها مبنية علىٰ الجهل والضلال. ولما كان

(١) المغني ٧/ ١٣٠.

(٢) تفسير القرطبي (٣/ ٦٩).

المشركون لا ينكرون وجود الله تعالىٰ، وإنما اتخذوا معه آلهة يظنون أن لها حظوة ومكانة عند الله تقربهم إليه، فقد أقام القرآن الكريم عليهم كثيرًا من الحجج والبراهين الملزمة لهم بالاعتراف بالوحدانية لله تعالىٰ، وعليه فحري بالداعية أن يَعِيَها ويستحضرها إزاء دعوته للمشركين؛ وذلك لأنها تمثل المنهجية الصحيحة في دعوتهم؛ ومن أهم ذلك:

أ- الأدلة القوية علىٰ صدق الرسول ﷺ المتمثلة في شهادة ربه تبارك وتعالىٰ له، وكفىٰ بها شهادة، وكذلك شهادة أهل الكتاب بصدقه، وشهادة المشركين أنفسهم له بالصدق والأمانة، وكان رأيهم في ذلك يعد إجماعًا منهم علىٰ كريم أخلاقه ﷺ. ولعل من أعظم علامات صدقه ﷺ أن تحداهم بالقرآن الكريم، بل تحدىٰ الإنس والجن علىٰ أن يأتوا بسورة من مثله، ولو بأقصر السور، ولم يتقدم واحد منهم إلىٰ الميدان، علىٰ الرغم من أنهم أئمة الفصاحة والبيان، وفرسان البلاغة في هذا الشأن.

ب- استجواب المشركين عن أمور لا يمكنهم إنكارها؛ كالرزق والحواس، وأحوال الموت والحياة، وشئون التدبير، والاستقلال بالملك والتصرف في الكون، وما فيه من سائر صنوف المخلوقات؛ لأنهم عند ذلك لا يجدون محيدًا عن الجواب الصحيح؛ وهو أن ذلك كله بيد الله، ومن هنا فإنه يلزمهم الاعتراف بأن الذي ابتدأ الخلق والإيجاد والإبداع، هو المستحق للعبادة وحده.

ج- وكذلك إلزامهم بتقرير وحدانية الله تعالىٰ، باعترافهم بأن الخالق لكل ما في الكون من: سماء وأرض، وشمس وقمر، وليل ونهار، وسحاب وأنهار، وحيوان ونبات هو الله تعالىٰ وحده؛ لأنه إذا كان الله تعالىٰ هو رب كل شيء ومليكه، وهو الخالق الرازق وحده، فلماذا يعبدون غيره؟! وكذلك فإن الله الخالق الرازق

المتصرف لم يأذن لهم في اتخاذ الوسائط بينهم وبينه -سبحانه وتعالىٰ - فلماذا يفتئتون عليه بلا إذن منه؟!

د- وألزمهم أيضا بإقرارهم بتوحيد الله عند الشدائد، وعند شدة الكرب والفزع في البر والبحر -حيث ثبت أنهم لا يتوجهون في تلك اللحظات إلىٰ صنم، ولا إلىٰ كوكب، ولكنهم يتوجهون إلىٰ الله وحده مخلصين له الدين سرًا وجهرًا- فذلك يوجب عليهم الإقرار بتوحيده في الأمن والرخاء.

هـ- ودعاهم القرآن الكريم عن طريق السؤال والجواب في آن واحد، حتىٰ لا يسأموا من الدعوة إلىٰ التوحيد، وفي الوقت نفسه كان هذا إلزامًا لهم بالحجة الواضحة التي لا يمكنهم إنكارها.

و- وفي مجال ضرب البراهين العقلية: دعاهم القرآن إلىٰ النظر والتدبر فيما يشاهدونه من خلق السماوات والأرض، وما فيهما من إبداع، وليس لآلهتهم في صنعها يد، فلا بد أن تكون العبادة لمن خلق كل ذلك.

ز-وضرب لهم الأمثال للتذكير والوعظ والاعتبار، وتصوير الشرك في صورة محسوسة، ليكون ذلك أقرب إلىٰ الأنظار، وأثبت في الأذهان، وأدعىٰ إلىٰ الامتثال.

ح- وجادلهم القرآن الكريم سالكًا معهم في الاستدلال علىٰ وحدانية الله تعالىٰ مسلكين:

١- **دليل التمانع**؛ وذلك أنه لو كان مع الله شركاء في كونه لما قبل أحد منهم أن يكون في مركز أدنىٰ، ولسَعَىٰ لمنافسة الآخرين في كل شيء، وعند ذلك يفسد الكون بين رغبات الشركاء، ولكن ثبت انتظام الكون وسلامته من الخلل والتصادم والفساد، فعلم أن الله واحد ليس له شريك.

٢- التركيز علىٰ إبطال معبودات المشركين، ومناقشتهم فيها مناقشة واضحة صريحة، وبيان أنها لا تقدر علىٰ خلق ذبابة، ولا تستطيع أن تدفع عن نفسها ضرًّا، ولا تجلب لنفسها نفعًا، فضلا عن نفع غيرها أو إلحاق الضرر به.

ط- وطالبهم القرآن الكريم علىٰ وجه التعجيز أن يأتوا بدليل عقلي أو نقلي يقر عبادتهم، ولما كان صريح العقل حاكمًا بأنه لا يجوز إسناد جزء من أجزاء هذا العالم إلىٰ معبودات المشركين، وإن كان ذلك الجزء أقل الأجزاء، ولا يجوز أيضًا إسناد الإعانة إليها في أقل الأفعال وأذلها، وكذلك فإن إثبات ما يعتقدونه عن طريق أي نقل أمر محال، ولأنه قد علم بالتواتر الضروري إطباق جميع الكتب علىٰ المنع من عبادة غير الله تعالىٰ؛ فلما بطل الكل ثبت أن الاشتغال بعبادة الأصنام عمل باطل واعتقاد فاسد.

ي- واشتمل مسلك القرآن الكريم علىٰ كثير من التوجيهات والتحذيرات التي تدعو المشركين إلىٰ الإيمان بوحدانية الله تعالىٰ وانضوائهم تحت لواء الإسلام؛ من أهمها ما يلي:

١- دعوتهم بالأمر الجازم بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه.

٢- مطالبتهم بأن يحاكموا تقاليدهم وعقائدهم الجاهلية الموروثة إلىٰ ميزان العقل، إن كانت لديهم عقول.

٣- استعمال أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة في دعوتهم، وعدم سب آلهتهم لئلا يسبوا الله تعالىٰ بسبب جهلهم وعدم علمهم.

ك- واستعمل معهم أسلوب القصة لتقرير التوحيد بأبلغ أسلوب، وأقوىٰ حجة، ونفي الشرك بأوضح بيان.

ل- دعوتهم إلىٰ التأمل في مصير المكذبين من الأمم السابقة، لأخذ الدرس والعبرة بسنن الله في الخلق؛ لأن السعيد من اتعظ بغيره، وتعلم من أخطاء الآخرين.

م- بيان ضلالهم حول بعض المسائل الغيبية، سواء ما يتعلق بالملائكة أو البعث، أو ما يتعلق بأمر الشفعاء والأولياء، وبيان الحق في ذلك، وإيضاحه التام.

ن- وكذلك فند القرآن جميع الشبهات التي يثيرها المشركون عن الرسالة؛ سواء ما يتعلق منها بالقرآن، أو بصاحب الرسالة عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

٤) علاقة الداعية بالباحثين عن الحق:

توجه بعض الدعاة لدعوة غير المسلمين إلىٰ الإسلام، وهدايتهم إلىٰ طريق النجاة في الدنيا والآخرة، واتخذ من الأساليب ما يتوافق مع ما يحتاجه هذا السبيل، واستعمل الأدوات المناسبة لهذا الميدان، فهدىٰ الله علىٰ أيديهم من أراد له الهداية والسعادة، وبقي آخرون علىٰ أبواب الهداية؛ يحول بينهم وبينها ريبٌ وتردٌد من بقايا ماضيهم المعتم، وأخلاطٌ مما كانوا فيه من شبهات الضلال، وهم يتحرَّون من يرفع عنهم غم هذه الغيوم بإجابات شافية ومعلومات كافية؛ لا سيما وهم يشاهدون ما في أديانهم من ازدواجية واضطراب وتناقض وضلال.

وهنا تبرز أهمية الداعية إلىٰ الله؛ فيبين لهم حاجتهم إلىٰ الإسلام، ويشرح لهم باختصار ووضوح أصول الإسلام الاعتقادية، وما في هذا الدين من المزايا والمحاسن، وما فيه من النبع الروحي العظيم الذي يروي ظمأ هذه القلوب والأرواح العطاش إلىٰ النور الصافي؛ نور الإسلام. كما ينبغي عليه أن يزيل عنهم الشبه المتعلقة بالإسلام التي ألصقها به أعداء الإسلام، وأن يبين لهم ضلال أديانهم وتناقضات كتبهم وكذب علمائهم. وأعظم ما يقوم به هو نفض الغبار عن أصل الفطرة لديهم، فيبين أن الفطرة

السليمة هي فطرة الإسلام والسلامة من الاعتقادات الباطلة، والقبول بالعقائد الصحيحة، وأنها لا محالة ستقود الحائر والمتردد للإيمان بالله العظيم وتصديقه.

٥) **علاقة الداعية بالمعاندين:**

الأصل في دعوة الناس أن تكون باللين والرفق؛ كما قال تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٣-٤٤]. والقول اللين هو الكلام الدال علىٰ معاني الترغيب والعرض واستدعاء الامتثال؛، بأن يظهر المتكلم للمخاطب أن له من سداد الرأي ما يؤهله لتقبل الحق والتمييز بينه والباطل، مع تجنب أن يشتمل الكلام علىٰ تسفيه رأي المخاطب أو تجهيله. كما يلزم أن تكون الدعوة بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

فإذا عاند المدعو ولم يُجدِ ذلك معه شيئًا، بل جحد وأنكر وتكبر ، انتقل الداعية بعد ذلك إلىٰ أسلوب الغلظة معه؛ كما قال تعالىٰ في حق اليهود: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٦]، بل قد ينتقل بعد ذلك لأسلوب المباهلة؛ كما قال تعالىٰ في حق النصارىٰ: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١]. ويراعي في ذلك كله المصلحة الراجحة.